

مجلة علمية فكرية ثقافية تصدر كل شهرين من إسطنبول
العدد: ٣٣ / السنة الثامنة / (نوفمبر - ديسمبر) ٢٠١٢
حراء
مجلة علمية فكرية ثقافية
www.hiramagazine.com
سيد الورود
كُلُّ الورود إليك توّاقة،
وعلى القبة الخضراء حَوَّامة...
كالفراش إذا آنس نورًا،
إليه سعى، ونحوه طار، وعليه تساقط...
فما أعظم ما عليه يدُلّنا، وإليه يسبقنا...
إنه ماء الحياة، من دونه تصوِّحُ الزهور، وتذبل الورود،
ويموت الزمان والإنسان.
* * *
أوان الرجوع إلى النفس
فقه واقع الأمة.. دراسة في المفهوم
نحو تأصيل الفقه الهاروني
في قضية الوحدة

بسم الله الرحمن الرحيم

الافتتاحية



العدد: ٣٣
السنة الثامنة
(نوفمبر – ديسمبر) ٢٠١٢

يدًا بيد...

"هلمّوا نتب من كلِّ آثامنا، مستغلِّين بركة هذه الأيام التي أحاطت بنا"؛ "دعونا نضع يدًا بيد مرة أخرى، ونتكلم بقلوبنا، ونُسمع النجومَ ما يدور في صدورنا، ولا سيما في هذه الأيام التي تتزين فيها الآفاق بالرحمة الإلهية، وتحتضن الأنوار الآتية من وراء الآفاق قلوبَنا"...

هي نداءات مدوّية، وصرخات مُجلجِلة، تهزُّ أركان الكون جميعه، وتهدُّ عتبات كلِّ قلب نابض بالحياة، طافح بحبِّ الخير.

إنَّ القارئ المتأني لَيتساءل مرَّة أخرى: هل هذا المقال كُتب اليوم، بنبرات واقع الأمَّة في مرحلتها الراهنة؟ وهل خُطَّ ليعالج حالنا الحاضرة، حرفًا حرفًا، ومعنىً معنى؟ أم أنَّ مؤلِّفه الأستاذ "فتح الله" تجاوز الزمان والمكان بما يصلُح لكلِّ زمان ومكان؟

لا ريب أنَّ زخارف منسوجات المقال الرئيس نسجت في نقطة اجتمعت فيها الحقيقة مع الصدق، والحكمة مع الهمَّة، بنفَس قرآني، وروح نبوي، وبُعد عُقبوي...

ولقد جاءت المقالات الأخرى على ظلِّ المقال الرئيس تعالج جوانب، وتسلط الضوء على جوانب أخرى؛ من ذلك "وجوب فقه واقع الأمة"، وضرورة "العناية الصادقة بمستقبل الثقافة الإسلامية" أصالةً وانفتاحًا؛ ثم كان الحرص على "ثقافة الحوار" ترياقا للفرقة التي كالبوم عشَّشت في أحشائنا؛ ولا شكَّ أنَّ "عسكرة الحياة"، و"الأحكام النمطية"، هي من أبرز الأسباب في إقصاء القريب وظلم الحبيب؛ ولا يملك المفتاحَ السحريَّ إلاَّ القرآن الكريم، فهو الذي يَرشَح "بنداء الإيمان باليوم الآخر"، ويدعو حثيثًا إلى "القراءة وإعادة القراءة" بمدلولها الحضاري الغائر في الوجود... لكن شريطة أنْ يحمل الخطاب إلى هذا العلو السامق سمات "الأدب الإسلامي"، ويتحلى أبطاله بصفات "فرسان الأمل".

ولم يغب العلم ودلائل القدرة من هذا العدد، ما بين "الأسماك المضيئة" في قيعان البحار، و"الخفافيش" الطائرة بخصائص الرادار...

ما بين "فكر وفعل"، وما بين "روح ومادة"، يولد الأمل الخافق، ويبزغ الفجر الصادق، ويرشُح المعنى من جديد، مُؤْذنًا بقدوم عهد عتيد وليد...

وحراء اليوم "أُذُن خيرٍ" لكلِّ من يحوم حول هذا العمق ويسبح في هذا التيار؛ تلقي بقُبلة حرى على جبين قرائها الأفاضل: سلامًا وتحية، حبًّا وشوقًا.




فقه واقع الأمة
دراسة في المفهوم
أصالة الثقافات
ومستقبل الثقافة الإسلامية
قصة إنسان في رحلة الحياة
بشرى قدوم محمد ﷺ

المحتويات

فتح الله كولن



أوان الرجوع إلى النفس

بينما كنا نسير نحو مستقبل مفعم بالنور بقلوب ملؤها الأمل، إذا بنا نسمع أصواتًا كريهة ترتفع من اليسار ومن اليمين تدعو إلى عهد مظلم من جديد. سمعنا هذه الأصوات النشاز فقلقنا، "أبدأنا نرجع إلى أيام التناحر والشقاق؟" كم كنا معجبين بهم عندما كنا نسمع منهم هذه الكلمات: "احترام الإنسان وتوقيره، وإبداء الحب للكل ولكل شيء، والتعامل بكل مرونة وتساهل مع العالم كله"، كم كانت هذه الكلمات ساحرة ومعسولة... كم أحببنا كلماتهم هذه وكم ضممنا التقدير لها في جوانحنا! أحببناهم وأعجبنا بهم... أعجبنا بكلماتهم ونحن نمشي في طريقنا نحو المستقبل بكل ثقة وأمن واطمئنان دون أن يخطر ببالنا ظهور أي مصاعب أو أمور سلبية أمامنا... وإذا بنا نفاجأ بهم وقد انتصبوا أمامنا بكل ما في جعبتهم من حقد ونفور وغضب، وبدأوا -وهم يهاجمون جميع الأطراف- بسد الأفق بأفكارهم السوداء الكالحة، وبنسف كل الجسور وتعطيل كل الطرق. قاموا بكل هذا وهم يتظاهرون بأنهم رسل السلام والنور، وبدأوا بألعاب قذرة تحت هذا الغطاء. وفي أحيان أخرى كشفوا عن وجوههم الكالحة السوداء سواد القطران، وبدأوا يهاجمون الأفكار النيرة، ويشنون عليها حربًا شعواء علانية وصراحة، ولم يتوانوا في هذه الحرب عن الافتراء على جميع الأفكار والحركات والفعاليات الإيجابية. والحقيقة أن هؤلاء لم يكونوا بيادق بيد قوى الظلام فقط، بل كانوا أيضًا هم الظلام بعينه. وحتى عندما حاولوا أن يظهروا وكأنهم مع النور ومع الضياء ومن أنصارهما، إلا أنهم كانوا في الحالين يمشون وراء الشيطان ويوقدون نار الفتنة.

أجل! لقد ترك البعض منا منذ مدة طويلة كل شيء، وتوجه نحو تخريب عاطفة الأخوة والصداقة الموجودة بيننا. لقد دارت رؤوسنا إلى درجة أننا لم ننتبه إلى أننا كنا نهلك أنفسنا بأيدينا. والأنكى من هذا، أننا كنا نربط جميع مشاعرنا وأفكارنا وسلوكنا بأحاسيس العداوة والبغضاء. وبدأنا نقوم

ونقعد بهذه المشاعر ونتنفس مشاعر الخصام، بينما كنا في حاجة ماسة إلى الأخوة والصداقة... كنا بحاجة إليهما ولكننا لم نكن نستطيع تحقيقهما. ليتنا استطعنا ذلك، ولكن هيهات... ولو كان بإمكاننا تحقيق مثل هذه الأخوة والصداقة بين أفراد هذه الأمة، لاستطعنا تجاوز هذه المشاكل والعقبات الكبيرة والضخمة ضخامة الجبال بحملة واحدة، ولأسمعنا صوتنا حتى إلى النجوم في السماء. ولكن لم نستطع، أو بالأحرى لم يَدَعونا نحقق هذا، بل زرعوا الشقاق والنفاق بيننا، فأصبح بعضنا أعداء للبعض الآخر ومصدر همّ وغمّ، وبدأ بعضنا يضرب البعض الآخر، وتَحوّل كل منا إلى شخص يعاني من مأساة هذا العصر. واليوم أصبح البعض منا ضد الجميع وضد كل فكر. فهو ضد كل من لا يفكر مثله، ولا ينفكّ عن معارضته وتشويه سمعته. ولا نفكر أبدًا بأننا إن سرنا في مثل هذا الدرب فسنبقى وحيدين وسنكون أسارى نواقصنا، ونحوّل مستقبلنا المملوء أملاً إلى كابوس وإلى جحيم، بينما نملك العديد من أسباب القوة التي تشكل أساسًا لآمالنا وعزائمنا. إذن فبعضنا قد غُلبت عقولهم وقابلياتُ التفكر والحكم لديهم من قبل أحاسيسهم وأهوائهم. لذا نراهم يعيشون حالة من التناقض في المشاعر، ويتعثرون على الدوام، ويعيشون أزمة في أفكارهم الرئيسة. فلا يمكن أن يشكل هؤلاء أمة واحدة على الرغم من كونهم أبناء بلد واحد، لأنهم وضعوا أنفسهم في مواضع معينة بحيث يهدم أحدهم الآخر... لا يشكلون أمة واحدة، بل يعيشون أسرى في شباك الاختلاف والتساقط، ويموتون وهم أسرى.

ولا أدري، ألم يَحِنْ بعد أوان محاسبة أنفسنا كأمة؟ لأنه إن استمر عدم الإحساس هذا مدة طويلة، فإنني أخشى -لا سمح الله- أن ننهدم في المدى القريب ونبقى تحت أنقاض أنفسنا. والحقيقة، يجب ألا نغض الطرف أبدًا عن مثل هذا الاحتمال، بل أن نخشاه وأن نعتصم جميعًا بحبل الوحدة والتضامن بقوة. إن أبرز خصائصنا كأمة، وأكثرها استحقاقًا للتسجيل، هي أن كل فرد من أفرادنا يحمل احترامًا كبيرًا للآخر. وإن أفضل منابع قوتنا هو تساندنا في مستوى القلب والشعور. وكلتا الخاصتين تستندان إلى أننا نقبل الآخرين كما هم ونحترم أفكارهم. وفي هذا الوقت نرسل رسائل الصداقة، ونعدّ برامج العيش مع كل أمم الأرض، فلماذا إذن نضنّ على أنفسنا وعلى أمتنا بعُشر ما نبديه من استعدادنا لفتح أبواب الصداقة مع جميع الأمم في العالم؟

ومع أننا نرحب بالصداقة مع الجميع إلا أننا نتساءل: ألا يجب علينا أن نمحو أولاً مشاعر العداء والحقد الموجودة فيما بيننا؟ إن وجود مشاعر الحقد والكره والعداء عند أي شخص، سواء أكان هذا متدينًا أو رجل علم أو رجل إدارة أو رجل فكر أو زعيمًا، يعد نقيصة كبيرة وعيبًا. وهم بهذا يمثلون ناحية سلبية في نظر الحق تعالى وفي نظر الخلق، وفي نظر هذا الجيل الناشئ.

إن الذين تركوا أنفسهم للحقد وللعداء، فإنهم يدمرون قيمهم الإنسانية، ويزعزعون موقعهم في قلوب الناس. إن صرف الإنسان عمره في غمار المشاعر السلبية والسيئة، عذاب لا يطاق من جهة، وانحطاط من جهة أخرى. بينما رؤية الجانب الإيجابي في كل شخص واحتضان الجميع، بطولة من جهة، وسمو من جهة أخرى.

إن توقير الإنسان واحترامه من موجبات الإنسانية ومن ضروراتها، وحب الإنسان من شروط القرب من الله تعالى ومن الخلق. والذين يستهينون بالناس بتصرفاتهم أو بأقوالهم يُفشون في الحقيقة مستواهم الخُلُقي، كما يفشي الذين يحقدون على الإنسان ويكرهونه ويعادونه نوعية ضميرهم ووجدانهم. بينما نرى أن أصحاب الخُلُق الرفيع هم من المتواضعين على الدوام، يهبّون نسيمًا رقيقًا في كل مكان، ويستروح بهم الناس... وهم يَعدّون احترام الإنسان ومحبته من أفضل الأشياء وأثمنها. ويرون أن حب الإنسان للآخرين، وكونه محبوبًا من قبلهم، أفضل وأثمن من ملك الدنيا. وأمثال هؤلاء ينذرون حياتهم من أجل حياة الآخرين ومن أجل سعادتهم بكل همة وعزم.

ومن السنن الإلهية أن أمثال هؤلاء الذين يحسنون الظن بالجميع ويحملون نوايا طيبة تجاههم، يحصلون على أضعاف مضاعفة لنواياهم وأفكارهم هذه. ومع أنهم لا يبغون هذا ولا يعنون أن يحصلوا على مقابلٍ لعملهم، إلا أنهم يحصلون على عشرة أضعاف ما يقدمونه مستفيدين من مزايا إنسانيتهم. أما الذين تركوا أنفسهم للحقد وللعداء، فإنهم يدمرون قيمهم

الإنسـانية، ويزعزعـون موقعهم في قلوب النـاس. إن صرف الإنسـان عمره في غمار المشـاعر السـلبية والسيئة، عذاب لا يطاق من جهة، وانحطاط من جهة أخرى. بينما رؤية الجانب الإيجابي في كل شـخص واحتضان الجميع، بطولة من جهة، وسـمو من جهة أخـرى... بطولة في التحكم بمشـاعر الحقد والنفـور والطمع. وهؤلاء الأبطال هـم الذين يسـيطرون على أهوائهـم فيتخلصون من ذل العبودية للشـيطان والعمل تحت إمرتـه، وفـي لحظة واحدة يصبحون عبـادًا لله أعزاء الجوانب وأسيادًا في عالمهم الداخلي.

لقـد أصبحنا -كمجتمـع- منذ زمن طويل أسـرى رغباتنا وعبيدًا لأهوائنا، وبدأ معظمنا يتصرف بوحي من الشيطان في قيامـه وقعـوده، ننزعج مـن الجميع، ونزعـج الجميع. وبهذا الأسـلوب من التصرف نبتعد بسـرعة -سـواء أشـعرنا بذلك أم لا- عن قيمنا الإنسـانية ونعيـش أزمات في أعماقنا. أجل! لقد اسـتقرت المشـاعر السـيئة في قلوب معظمنا، مع أن هذه القلـوب عـشّ وخيمـة للحـب. فلم نعـد نسـتطيع الآن حب الآخرين ولا احتضانهم ولا إبداء التسامح والمرونة تجاههم. وأصبحنـا نلتذ بالتحطيـم والتدمير والتخريـب، وكالبوم نقيم أعشاشـنا فوق الخرائب، ونهاجم الجميع، ونسـرع للتخريب برغبة وشـهوة كبيرة، ونتورط بذلك في آثام لا تغتفر نحو الله تعالى ونحو بلداننا ونحو الناس. وأحيانًا نقترف هذه السيئات ونحن نحسـب أننـا نقدم خدمة نتوقع الشـكر والحمد والثناء من الآخرين عليها. والشـمس بدأت تطلع كل يوم على ظلم أو علـى اعتـداء وتجـاوز أو هذيـان، وتمر الليالـي حالكات الظلام، وأصبحت حالنا حال مجتمع عقد العزم على اقتراف الآثام. المشاعر الإنسانية بقيت خلف الأهـواء النفسية بمسافة كبيـرة، وتقدمت مقاييسـنا الشـخصية والمزاجية على المنطق وعلى الموضوعية. أما مشـاعر المحبة والتسـامح فقد ذبحت بخناجر العداوة. أما أعداد الأشـخاص الذين أصدرنا بحقهم أحكامًا جائرة بأفكار مسـبقة فـلا يعدّون ولا يحصون. وليس من المعلوم ما سـنفعله، ومتى سـنفعله، ولمن نوجه شتائمنا، ومـن سـنقوم بإغراقه بالإهانـات. فنحن نعيش فـي دائرة من الجنون وفي مجتمع "شـيزوفيرينيا"، فلا نشبع من الظلم، ولا نخجل من الاعتداء ولا نكف عن اقتراف الآثام...

إثـمُ عـدمِ احترام الحـق، وإثم شـعور الكره نحـو الناس والنفـور منهـم، وإثم الاسـتخفاف بالأفكار، وإثـم بذر بذور الفرقـة والخـلاف فـي المجتمـع، وإثـم النظر إلى كل شـيء بمنظار أسـود، وإثـم عدّ الآخريـن مجرمين وأنفسـنا بريئين، واعتبـار الآخرين من أهل النار أو مـن الرجعيين، وإثم القيام بعرقلة كل خطوة إيجابية، وإثم تخريب القيم الإنسانية... إلخ من الآثام. وأنا أعتقد أنه آن الأوان للتوبة من كل هذه الآثام.

إذن تعالـوا نتـب من كل آثامنا مسـتغلّين بركـة هذه الأيام التـي أحاطت بنا، فنبدأ بعيش فتـرة تطهّر، ونعزم على احترام الآخرين، والحفاظ على جميع القيم الإنسانية، واحترام أفكار الآخريـن، وقبولهـم علـى ما هـم عليـه، وأن نـدع النزاعات التـي حدثت في الماضـي ولا نثيرها من جديـد، ولا نجعلها وسـيلة لنزاع جديد أو خصام، وأن ندع تقسـيم المجتمع إلى معسـكرات مختلفـة، بل لنؤكد علـى الوحدة والتسـاند على الدوام. فإن كانت قلوبنا لا تزال تنبض ببعض القيم الإنسانية، وإن كانـت عضلاتنـا لا تـزال قويـة، إذن فليحتضـن بعضنـا البعـض الآخر، ولنبحث عن طُرق جمْع ما سـبق وأن بعثرناه من أشلائنا هنا وهناك، وكيف نوحّد هذه الأجزاء بقوة بحيث لا تنفصل ولا تتجزأ مرة أخرى، ودعونا نستنطق لغة القلوب التي تقربنا إلى الناس، وتوصلنا إلى الله، تاركين مشاعر الحقد والعداء التي تقطع علينا الطريق كل حين.

إذا كان المطلوب هو تحويل بلادنا إلى جنة وارفة الظلال -وأعتقـد أنـه لا توجد شـبهة في هـذا الأمر- فـلا ينجح في هـذا ولا يسـتطيعه إلا من أقام هذه الجنة فـي قلبه أولاً. فمن لم يسـتطع تخليص قلبه وعالمه الروحي من قبضة المشـاعر والأهواء التي تقلل من مسـتوى الإنسـان وتخفض من قيمته، فهـو أعجز من أن يقدر علـى هذا، بل لو قُدّر له -على فرض المسـتحيل- أن يمر من جنات الفردوس، لكان من المحتمل أن يفسدها ويشوهها ويقلبها إلى سجون.

دعونـا نضع يدًا بيـد مرة أخرى، ونتكلم بقلوبنا، ونُسـمع النجـومَ مـا يدور في صدورنا، ولا سـيما في هـذه الأيام التي تتزيـن فيهـا الآفاق بالرحمـة الإلهية، وتحتضـن الأنوار الآتية مـن وراء الآفـاق قلوبَنا... نتوحد في هذه الأيام المباركة التي تتـردد فيهـا أنفاس جبريل عليه السلام، وتلتقي فيها الأدواء مع العلل والأمراض. ■

(*) الترجمة عن التركية: أورخان محمد علي. (رحمه الله)

علوم

أ.د. ناصر أحمد سنه*



أسماك مضيئة في قيعان البحار

لعل الضوء من أهم العوامل -بجانب الحرارة، والضغط المائي الكبير، وتيارات المد والجزر، ونسبة الملوحة المرتفعة، ومصادر التغذية... إلخ- التي تؤثر تأثيرًا كبيرًا في حياة الكائنات البحرية التي تعيش في أعماق البحار والمحيطات. ففي هذه الأعماق السحيقة -حيث انعدام الرؤية بسبب "الظلمة التامة المركبة" الناجمة عن السحب، والأمواج السطحية والداخلية- كيف تسير وتهتدي وتتغذى وتتكاثر الكائنات البحرية المتنوعة؟!

عديدة هي الكائنات البحرية، بينما يُقدّر عدد أنواع الأسماك المعروفة عالميًا، بحوالي ٢٤ ألف نوع. ويعيش نحو ٦٠٪

منها في المياه المالحة وفي مختلف مستويات العمق، ومن أهمها "أسماك الأعماق/القاع". وفي العديد من الكائنات البحرية التي تعيش في ظلمات القاع الحالكة، ثمة "إضاءة ذاتية حيوية" (Bio-luminescence). فهي تستطيع توليد وإنتاج وإصدار "الضوء البارد" غير المُصاحب بإشعاع حراري.

وتتميز معظم أسماك القاع المضيئة بلونها الداكن؛ إما سوداء أو بنيّة داكنة أو بنفسجية... إلخ. وغالبًا ما تكون أجسامها رخوة لينة عديمة القشور أو تحتوي على القليل منها. وتُعد أسماك "الستومياتويد" من أكبر مجموعات أسماك القاع المضيئة. تتميز بعيون كبيرة قادرة على جمع أكبر قدر ممكن من الضوء، كما أن أجسامها متطاولة (طولها ما بين بضعة سنتيمترات - مترين). وفكوك ضخمة مزودة بأسنان كبيرة تضفي عليها "مظهرًا مرعبًا". وفي أحد أنواعها "السمكة الأفعى" تبرز الأسنان "كأنياب" خارج فم السمكة. والبعض منها له لون أسود مع وجود صفوف من الأعضاء المضيئة "Photophores". وفي أنواع أخرى تتدلى أسفل فكوكها خيوط مضيئة تزيد على طول السمكة أضعافًا مضاعفة.

ومن أوضح الأمثلة للأسماك المُضيئة سمك "أبو الشص" أو "المبتلع الأنقليس" (Angler fish) أو (Chaenophryne longiceps) وهناك حوالي ١٥٠ نوعًا منه، وهي تتوزع على البحار الدافئة والباردة، والضحلة والعميقة. ويبلغ عدد الأنواع التي تعيش في قاع البحار (في أعماق تصل إلى ٢٠٠٠م تحت سطح البحر) مائة نوع تقريبًا. وبعض أسماك هذا النوع ينمو ليصل إلى المتر طولاً، إلا أن معظمها لا يتجاوز بضع سنتيمترات.

وقدرة أسماك "أبو الشص" على السباحة ضعيفة، وكثير منها يستعمل الزعانف الصدرية للزحف ببطء فوق قاع البحر فتتربص ما تقتات به، ومن أبرز صفاتها؛ شوارب مضيئة تتدلى من ذقونها. وعضو الصيد "الشَرك الضوئي" (يشبه حيوانًا قشريًا مغريًا). أو"صنارة مضيئة" تبدو كزائدة/بقعة مضيئة من نسيج حي تجذب إليها الأسماك والفرائس الصغيرة، ومن ثم

لكل نوع من الكائنات البحرية "هويته الشخصية" مسجلة بحروف من ضوء تشع في الأعماق، ليعلن بها عن نفسه فيعرف ابن جنسه أو عدوه.. ففي الظلام الذي يُظن أنه "موت وانغلاق" تنبعث أنوار هذه الكائنات البحرية التي هي "حياة وانطلاق".

تلتهمها بتلك الخدعة. وتوجد أسماك أخرى تمتلك "مفصل" على طول خيط الصنارة المضيئة، تستطيع أن تثنيه سريعًا لتلتهم الفريسة المُثبتة على خطاطيف حادة صغيرة.

على عكس "المصابيح الحية" التي يضيئها الكائن البحري وقتما يشاء، ويطفئها وقتما يشاء. توجد أنواع من الأسماك جعل الله لها في مناطق من جسمها، مساكن تقطنها أنواع "متكافلة" من البكتريا المضيئة. لكن الضوء البكتري ضوء مستمر لا تتحكم به السمكة إضاءة وإطفاء، لذا وهبها الله تعالى "غشاء داكنًا" يشبه الجفن، فترخيه لتحجب به الأضواء، وترفعه عن المصابيح فتضيء، كما هو الحال مع سمكة "فوتوبليفارون" التي لها بقعة من هذه البكتريا أسفل كل عين، وعندما تريد السمكة أن تطفئ ضوءها، تعمد إلى إسدال ذلك كجفن عليها.

أسماك كالغواصات

وتبدو الأسماك المضيئة كغواصات أعماق، يسير البعض وقد أضاء مصابيحه الحية إضاءة مستمرة، وقد تطفئ الضوء لفترة ثم تعيد أنارته لفترة أخرى، وتتكرر الإنارة والإطفاء بنظام ودقة وتوقيت رائع. فقد تنير المصابيح لعشر ثوان، ثم تطفئها لخمس، وتنير وتطفي كأنها تتبادل الإشارت مع أسماك أخرى؛ إلا أن بعضها قد يضيء لمدة نصف ساعة، ثم يغلقها ومن ثم يعاود الكرة لنفس المدة. ولدى البعض عضلات قوية تقبضها وتبسطها كيف شاءت، فتزيد أو تضعف من قوة الضوء إذا أرادت. كما لدى البعض الآخر أسنان قد يشع الضوء منها، ولبعضها ألسنة قد يشع الضوء منها كذلك.

أما "سيبيولا" (Sepiola) وهو من الرخويات، مثل السبيط، فينشر "ساترًا من ضوء" يغشي عين من يهاجمه من كائنات أقوى منه، ثم سرعان ما يهرب. فلقد تعاون "سيبيولا" مع بعض أنواع المضيئة من البكتريا التي تسكن القاع؛ أخذها وزرعها ورباها في جيب نسيجي خاص، وأعطاها الحماية

والغـذاء، بينمـا تنطلق هـي من الجيب لتغشـي عيون الأعداء من حوله. ويوجد نوع من "سبيط" الأعماق له عينان كبيرتان، ويحيـط بكل منها خمسـة مصابيح صغيرة، يشـع كل مصباح بضوء أبيض وقد يتحول إلى أزرق عميق، تعمل كـ"كشـافات" تضـيء له الطريق فـي ظلمات البحر. وهناك عشـرة مصابيح أخرى تنتشـر على أماكن مختلفة من جسمه، منهما مصباحان فـي مؤخرته يشـعان ضوءًا أحمـر وكأنهمـا "مصباحا الخطر" المثبتـان فـي خلف السـيارة. وتملـك بعض أسـماك "الحبّار مصـاص الدمـاء" (Vampyroteuthis İnfernalis) أعضـاء مضيئـة خفيفـة علـى جسـمها، ومؤخرًا وُجد بـأن لها أعضـاء خفيفة ومضيئـة فـي ذراعيها، حيث يمكن رؤيـة التوهج الذي يوجد على أجهزتها المضيئة، على طول منتصف الذراع. وثمة حبّار صغيـر من جنـس "Abraliopsis" يمتلك عدة أنـواع مختلفة من الأجهـزة الخفيفـة، حيـث إن الحوامل الضوئيـة تغطي الجزء السفلي من الجسم.

ومن الكائنات البحرية "مشط البحر الهيلامي" (Comb Jelly)، ويتميز جسمه بامتلاكه شعيرات دقيقة متسلسلة يستخدمها في تحريـك جذعـه في المـاء، وكذلك يحتوي فـي منطقة الظهر علـى خلايـا على شـكل شـرائط تبـدو كأنها مخيطـة، ولهذه الخلايـا قـدرة على توليد الضوء. إن هـذه الميزة موجودة في كل أنـواع مشـط البحـر تقريبًـا، وكل نوع له ميـزة خاصة به؛ فمشـط البحر الأحمر يبدأ باللمعان حالما يتم لمس جسـمه، وفي الوقت نفسـه يطرح في الماء موجات مضيئة من جسمه، وهذا السلوك يمثل أسلوبًا للتمويه والتخفي عن أعين الأعداء.

أما نوع "الشّوكيات" (نجوم البحر، وكستناء البحر، ونجوم البحـر الشـعرية) فإنهـا تعيـش بالقرب مـن الشـواطئ، وبين الشـعب المرجانية، وفي الخلجان البحرية. تقوم هذه الأحياء بتوليد الضوء الخاص بها لإرهاب الأعداء. تمتاز أطراف هذه الحيوانـات وعمودها الفقـري باللمعان، حيث تطلق موجات مضيئة من جسمها حالما تتعرض لهجوم خارجي.

وهنـاك أحد أنـواع النجم البحري يعيـش على عمق ألف متر تحت سـطح البحر يتميز بـ"التوهج الضوئي"، حيث تشـع مـن أطرافه أضواء خضراء تميل إلى الزرقة. ويوجد نوع آخر مـن نجـم البحر يبدأ باللمعان حالما يشـعر بهجوم العدو، بل ويرمـي العدو بأحـد أذرعه المسـتمرة باللمعـان لجلب انتباه العـدو أو إبعـاده، ومـن ثم يسـتطيع الهـروب والنجـاة. ومن مجدافيات الأقدام (القشـريات) يوجد "Gaussia"، وهو عملاق فـي عالـم "الكوبيبودا" (Copepoda). فمعظـم الكوبيبودا يكون مليمتـرًا أو اثنين، وهذا النوع يبلغ ٢٧ مليمترًا عبر الهوائيات، ويبرع في إنتاج ألمع عروض الضوء الحيوي، إذ يحدث ذلك عندما يُخرج نفحات من الضوء عند القيام بالهروب.

طبيعة المصابيح الضوئية، وكفاءتها الحيوية

"حاملات الضوء" عبارة عن مصابيح صغيرة على درجة عالية من الكفاءة. تتركب من قرنية شـفافة تتلوها عدسة، ثم عاكس مقعر عبارة عن نسيج خاص يقابل شبكية العين هو المسؤول عـن توليـد الضوء، وقـد تقوم القرنيـة والعدسـة بتجميع هذا الضـوء قبل أن ينبثق خارج جسـم السـمكة. وتختلف أعضاء الإضاءة في هذه الأسماك من حيث العدد والتوزيع والتعقيد، وغالبًا ما توجد على جانبيها، أو على بطنها، أو رأسها، ونادرًا على سطحها العلوي. وتعتبر قدرة الأسماك على توليد الضوء إحـدى عجائـب خلق الله في الطبيعة. وقـد يكون هذا الضوء باهتًا يصدر بشـكل متقطع من وقت لآخر، أو قد يكون مبهرًا مستمرًا.

ينتـج هـذا الضوء من تحويـل الطاقة الكيميائيـة إلى طاقة ضوئيـة، حيـث تتحـول مـادة "اللوسـفرين" (Luciferin) بعـد اتحادهـا مع الأكسـجين، لتكون مادة "الأوكسـي لوسـفرين" المضيئـة. ويقوم بهذا التفاعل إنزيم "اللوسـفريز" (Luciferase) الـذي يرتبـط بمصـدر الطاقة فـي الخلايـا الحية "أدينوسـين ثلاثي الفوسـفات" (ATP)، ويظـل مرتبطًا بمصدر الطاقة حتى تأتي إشـارة من الخلايا المتخصصة لإصدار الضوء الحيوي، فينفصل الإنزيم عن مصدر الطاقة ليقوم الإنزيم بتحفيز تحول مادة اللوسـفرين للاتحاد بالأكسجين وتتأكسد لتكوين المادة المضيئة (الأوكسـي لوسـفرين). ويمثل هـذا التفاعل الفريد، عملية الأكسـدة الوحيدة المعروفة في أجساد الكائنات الحية التـي لا يصاحبها إنتاج قدر مـدرك من الحرارة، بل إن الطاقة الكيميائيـة تتحول جميعها إلى طاقـة ضوئية، مما يجعل كفاءة ذلك الضوء الحي يصل إلى مئة بالمئة، في حين أن مصابيحنا أو آلاتنا لا تسـتطيع بلوغ تلكم النسـبة النهائية في تحويل كل

طاقتها إلى ضوء. ومن العجيب أن كل نوع من هذه الأحياء البحرية له مركبات كيمائية خاصة منتجة للضوء، وله إنزيماته الخاصة كذلك.

وقد أجرى "هارفي" أحد أفذاذ عصره المختصين بالكشف عن "سر الضوء الحيوي" عدة تجارب في هذا المجال،[1] فوجد أنه لو أُعطِيتُ جزءًا واحدًا من المادة التي ينبعث منها الضوء الحيوي، ووزعته في ٤٠ مليار جزء من ماء البحر، لاستطعت أن ترى ضوءها في هذه الكمية الهائلة من الماء، شرط وجود الإنزيم الخاص مع الأكسجين. كما يشير إلى أن لو وُزع جزء واحد من الإنزيم على ٨ مليارات جزء من ماء البحر، فإنه يستطيع أن يؤكسد مادة انبعاث الضوء الموجودة في الماء، ويبعث بضوء تحس به العين البشرية. كما أن الأكسجين الداخل في هذا التفاعل، يستطيع بعث الضوء -في وجود شروط التفاعل من إنزيم ومادة كيمائية- إذا كان تركيزه جزءًا واحدًا في كل مائة مليون جزء من الماء. فلو قارنا هذا الدينامو الحي الصغير الذي يبعث بإضاءته القوية مع حجمه الضئيل مع الدينامو الضخم الذي صنعه البشر، لتبين كيف تتضاءل إمكاناتنا أمام "عطاءات" الخالق ﷻ لمخلوقاته... عطاءات لا تعلو على دقتها دقة ولا على كفاءتها كفاءة: ﴿صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾(النمل:٨٨).

وظائف وفوائد الإضاءة الحيوية

في الأنواع المختلفة من الكائنات البحرية المضيئة، كالأسماك والجوفمعويات والقشريات وغيرها، خُلقت وسائل الإضاءة الذاتية/التكافيلية فيها بتصميمات مبهرة ودقيقة: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾(القمر:٤٩). ويمتاز نحو ٩٥٪ من الأحياء المائية في الأعماق بإشعاع "ضوء حيوي مختلف الألوان". فلكل نوع من أسماك الأعماق عدد محدد من المصابيح، ولكلٍّ ضوؤه الخاص (أزرق، أبيض، أخضر...)، وموقعه وقوته التي لا تتغير: ﴿هَذَا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾(لقمان:١١).

كما أن لهذه "الإضاءة الحيوية، والمصابيح الضوئية" العديد من الوظائف والفوائد... فالأسماك المضيئة تستخدم "أضواءها" لترى بها الأشياء في ظلمات الأعماق؛ فالأعضاء المضيئة حول العينين تجعل "مجال الرؤية" مضاءً لمسافات قصيرة على الأقل. فلإحدى "الأسماك الستوماتويدية" قدرة على إلقاء حزمة قوية من ضوء أزرق لمسافة تبعد عن جسمها بمقدار ٦٠ سم، إلا أن أكثر مواقع أعضاء الإنارة التي تميز حاملات الضوء، هي على الجهة البطنية، ويستعمل هذا الضوء ككشافات تسلط على الطحالب والكائنات الدقيقة، والتي تتغذى عليها العديد من أسماك الأعماق... كما تشكل "أنماطًا" مميزة يتعرف بواسطتها أفراد النوع الواحد، فتستخدم الضوء "كلغة إشارة وتواصل خاصة" بين أفراد النوع دون غيره، ولكي يتجنب أفراد النوع افتراس بعضه البعض، كما تعتبر وسائل لاجتذاب الفرائس أو للدفاع وتخويف باقي الأعداء... ولا شك أنها أيضًا، تفيد كشفرات بين الذكور والإناث لأغراض التزاوج.

ويبقى السؤال: مَن غير الله الخالق البارئ المُصور، يمكن أن يعطي كل نوع من أنواع تلك الأحياء البحرية العميقة هذا النور الذاتي، ويحقق تلك الوظائف والفوائد المتعددة؟ وهنا يتضح البعد المادي الملموس لهذا النص القرآني المعجز، كما يتضح من قبله الجانب المعنوي الرفيع: ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾(النور:٤٠).[2]

إذن، إن آلية إنتاج الضوء الحيوي لدى الكائنات البحرية، تمثل دليلاً على عظمة الله ﷻ وبديع صنعه وعظيم هدايته: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾(طه:٥٠). وهكذا يسير كل نوع من هذه الكائنات البحرية له "هويته الشخصية" مسجلة بحروف من ضوء تشع في الأعماق، ليعلن بها عن نفسه فيعرف جنسه أو عدوه، فينحرف إليه في حالة الزواج أو يهرب منه في حالة العداء أو ينقض عليه في حالة الغذاء. ففي الظلام الذي يُظن أنه "موت وانغلاق" تنبعث أنوارها التي هي "حياة وانطلاق": ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾(النور:٤٠). ■

(*) كاتب وأكاديمي مصري.

الهوامش

[1] انظر، أسرار المخلوقات المضيئة، للدكتور عبد المحسن صالح، المكتبة الثقافية، العدد:١٢٠، ص:١٣٣-١٣٤، الدار المصرية للتأليف والترجمة، نوفمبر ١٩٦٤م.

[2] تأملات في كتاب الله، للدكتور زغلول النجار، ص:٢٠٢-٢٠٣، الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٨م.

أ.د. الشاهد البوشيخي*



فقه واقع الأمة
دراسة في المفهوم

فقه الواقع ضروري لأي تخطيط، وإلا ضاع الهدف لعدم تحديد المنطلق. وفقه الواقع ضروري لأي تشريع أو تنزيل، وإلا وُضع الشيء في غير موضعه، ووسّد الأمر إلى غير أهله. وما بعثة الرسل -عليهم الصلاة والسلام- في أقوامهم، إلا مراعاة لفقه الواقع، وما تطور تنزيل الدين عبر التاريخ، إلا مراعاة لتطور الواقع.

وبما أن البشرية اليوم تقف "على حافة الانهيار، يدعّها عبّاد العجل دعًّا إلى الدمار، وتسوقها العولمة سوقًا إلى النار، بكيدها العتيد، ومكرها الشديد، وأذرعها العالمية الجهنمية، بنوكًا ومنظمات؛ تستصرخ ولا من صريخ، وتتظلم إلى من فيه الخصام وهو الخصم والحكم. قد أحكم الدجال الأعور قبضته عليها، فخنق الأنفاس، ومص دماء الناس، ولا خلاص للناس كل الناس، إلا بظهور دين رب الناس، ملك الناس، إله الناس، على يد خير أمة أُخرجت للناس.

وبما أن أمتنا اليوم قد شاخت ووهنت بما كسبت، حتى صارت قصعة طعام يتهارش على خيراتها شر المفترسين.

وبما أن الأمر كذلك، فقد صار التجديد للأمة اليوم -قلبًا وقالبًا- فريضة شرعية وضرورة حضارية".[1]

ولا سبيل إلى ذلك بغير فقه واقع الأمة، ذلك بأن التجديد يتطلب فقهًا لما به يكون التجديد، وهو هاهنا الدين ممثلاً في القرآن والسنة البيان.. وفقهًا لما له يكون التجديد، وهو هاهنا الأمة ممثلة في واقع المسلمين.. وفقهًا لكيف يكون التجديد،

وهو هاهنا "السيرة" أو المنهاج ممثلاً في كيفية تنزيل الدين على الواقع وإحلاله فيه. وكل ذلك مرتبط بالواقع ضربًا من الارتباط.

وإذا جاز تصور تحصيل الفقه الأول بمعزل عن الواقع، فإن الفقهين الآخرين لا يستطاع تصور تحصيلهما دونه، فوجب الانطلاق من "فقه سديد" للواقع في أي محاولة للتجديد الصحيح.

مفهوم الأمة:

"الأَمُّ" في لسان العرب: مداره على القصد، قال ابن منظور: "وأصل هذا الباب كله من القصد. يقال: أَمَمْتُ إليه: إذا قصدتُه؛ فمعنى "الأُمة" في الدين، أن مقصدهم مقصد واحد، ومعنى "الإِمَّة" في النعمة، إنما هو الشيء الذي يقصده الخلق ويطلبونه، ومعنى "الأُمة" في الرجل المنفرد الذي لا نظير له، أن قصده منفرد من قصد سائر الناس... ومعنى "الأُمة"، القامة، سائر مقصد الجسد. وليس يخرج شيء من هذا الباب عن معنى "أممتُ": قصدتُ".

وعند تحليل هذا الأصل إلى مكوناته الدلالية، يتبين أنه يتكون "من أربعة معان: "اختيار، حركة، تقدم، هدف".[٢]

فإذا أضيف إلى ذلك أن مدار "الأمة" في لسان العرب على: "الجمع المُوحَّد" (بفتح الحاء) كما نبه على ذلك الراغب بحق: "والأمة: كل جماعة يجمعهم أمر ما؛ إما دين واحد، أو زمان واحد، أو مكان واحد، سواء كان ذلك الأمر الجامع تسخيرًا أو اختيارًا".. تبين أن "العناصر" الكبرى المكونة لـ"مركّب" الأمة ثلاثة: عنصر الجمع، وعنصر الوحدة، وعنصر القصد. وسر تفاعلها جميعًا كامن في طبيعة الموحِّد (بكسر الحاء)، أو "الأمر الجامع"، بتعبير الراغب.

وبه يؤول الأمر إلى أن مناط وجود الأمة هو "الأمر الجامع؛ تسخيرًا أو اختيارًا" كما قال الراغب؛ فإذا وجد وجدت، وإذا غاب غابت. ثم من بعد ذلك يأتي التطور الدلالي للفظ الأمة لمن شاء تتبعه، والتطور الوجودي لكيان الأمة لمن شاء رَبْطَ مراحله.

هذا عن الأمة في اللسان، أما عن "الأمة" في القرآن والسنة البيان، فالذي يضاف مما يعنينا أمران:

الأمر الأول: أن مسمى الأمة المقصودة والمكونين لها تحدده هذه الآيات: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾(البقرة:١٤٣)، ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(آل عمران:١٠٤)، ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾(آل عمران:١١٠).

لا سبيل إلى فقه واقع الأمة بغير التمكن من مكونات الوضع الموضوع، والتتبع الأفقي والعمودي لما يجري في الظرف المعيش ويتفاعل في المجال المحيط. ولا جرم أن هذا العبء ضخم، وأن التخطيط له بله إنجازه يحتاج إلى صفوة من أولي العزم.

ومن الآيات يستفاد:

• أن "جميع العناصر المكونة لـ"مركب الأمة" موجودة في المخاطَبين المتبوعين؛ فهم جماعة لا أفراد، وهم موحَّدون لا متفرقون، وهم رساليون قاصدون لا هَمَل... إنهم المهاجرون، والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان، وإنهم "أمة واحدة من دون الناس"، هم "في تَوادِّهم وتَراحُمهم وتعاطفهم مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تَداعَى له سائر الجسد بالسهر والحُمّى" (رواه مسلم)، وإنهم أمة "أخرجت للناس" ليكونوا "شهداء على الناس"، وليُخْرِجُوا الناس -كلَّ الناس- من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة.

هكذا جعلهم الله تعالى ليكُونوا الأمة، وهكذا كانوا في واقع التاريخ وزمن الخطاب يمثلون الأمة، وهكذا ينبغي أن يكونوا في أي تاريخ وفي أي زمن ليصدق عليهم لفظ الأمة.

• أن "الأمر الجامع" للمخاطَبين المكوّنين للأمة هو "الإسلام". فالخطاب في "جعلناكم"، و"منكم"، و"كنتم" ليس إلا للمسلمين "من قريش، ويثرب، ومن تبعهم فلحق بهم..."[٣] إلى قيام الساعة؛ فيشمل باصطلاح رسول الله ﷺ، أصحابه وإخوانه، أي يشمل جميع المسلمين على امتداد الزمان والمكان منذ البعثة حتى انتهاء الكون.

• أن رسالة الأمة ووظيفتها وموقعها -كما تحدده آية البقرة وتفصله آيتا آل عمران- "هو الشهادة على الناس، وهو

جَعْـلٌ مـن الله رب الناس، ملك النـاس، إله الناس، كما جعل آدم في الأرض خليفة، وكما جعل إبراهيم إمامًا للناس، وكما جعل البيت مثابة للناس، وكما جعل وجعل...".

ولا شـهادة بغيـر أهلية للشـهادة ولو في الأمـور الصغيرة ﴿وَأَشْـهِدُوا ذَوَيْ عَـدْلٍ مِنْكُمْ﴾(الطلاق:٢) ﴿مِمَّـنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾(البقرة:٢٨٢)، فكيف بالشهادة على الناس كل الناس؟

وشروط الأهلية في الآية:

أولا: أن تكونـوا "أمـة". ولا أمة بغير وحدة ما يُؤَمّ، ولا وحدةِ مـن يَـؤُمُّ ومن يُـؤَمّ؛ إذ مـدار الأَمّ كله في اللغـة على القصد، ومدار الأمة كلها على الوحدة في ذلك القصد.

ثانيا: أن تكونوا "وسطًا". ولا وسطية بغير خِيَرة، كما نصت الآية الأخرى: ﴿كُنْتُـمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾(آل عمران:١١٠)، ولا خيرة بغير قوة وأمانة ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾(القصص:٢٦). وإنما توسـد الأمانة للأقوياء لا للضعفاء. قال رسـول الله ﷺ: "يا أبا ذر، إنك ضعيف، وإنها أمانة". (رواه مسلم)

ومـع ذلـك، كل ذلك لا يكفي لأداء الشـهادة، إذ لابد من الشـهود؛ أي الحضـور لأداء الشـهادة. وحين تكون الشـهادة بالخيرة؛ أي بالحال أساسًا قبل المقال، ومن أمة لا من أفراد، وعلـى الناس جميعًا لا على بعضهم، فإن الشـهود والحضور لابـد أن يكـون حضاريًـا؛ أي حضـورًا بالإمامـة فـي كل المجالات، وعلى جميع المستويات، وفي كل الأوقات".[٤]

الأمـر الثاني: إن اسـم الأمـة المقصـودة، والمكونين لها تحدده هذه الآيات:

﴿وَإِذْ يَرْفَـعُ إِبْرَاهِيـمُ الْقَوَاعِـدَ مِـنَ الْبَيْتِ وَإِسْـمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّـمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّـوَّابُ الرَّحِيمُ﴾(البقرة:١٢٧-١٢٨)، ﴿يَـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْـجُدُوا وَاعْبُـدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُـوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُـمْ تُفْلِحُونَ * وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَـمَّاكُمُ الْمُسْـلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُـولُ شَـهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُـهَدَاءَ عَلَـى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّـلاَةَ وَآتُوا الـزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلاَكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾(الحج:٧٧-٧٨).

ومن الآيات يستفاد:

١- أن اسـم الأمـة الصحيـح هو "الأمـة المسـلمة" لا "الأمة الإسلامية"، ولا غير ذلك مما هو أبعد من ذلك.

وفـي ذلـك ما فيـه من تمثيـل الاسـم للمسـمى ومطابقة المصطلـح للمفهوم، إذ شـتان فـي الصلة بالإسـلام بين "أمة مسـلمة" و"أمـة إسـلامية"؛ شـتان بيـن أمة تتصف بالإسـلام وتمـارس الإسـلام وخلُقهـا الإسـلام، وبيـن أمة تنسـب إلى الإسـلام وتحسـب على الإسـلام وتضاف إلى الإسـلام. إن البؤرة غير الهامش، وإن المضاف إليه غير المضاف.

٢- أن اسـم المكوّنين للأمة الصحيح هو "المسـلمون" لا "الإسـلاميون"، انسـجامًا مع اسـم الأمة التي هم لها مكوّنون وبها كائنون. وشتان في المصطلح والمفهوم بين "المسلمين" و"الإسلاميين"، وشتان في الأصالة والرسوخ بين لفظ محدث يـكاد يتبـرأ منـه الوحـي، ولفظ عتيـق مختار منصـوص عليه ضارب في أعماق الوحي: ﴿هُوَ سَـمَّاكُمُ الْمُسْـلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا﴾(الحج:٧٨).

٣- أن قِـدَم الاسـمين وتعاقبهمـا في دعـوة إبراهيم عليه السلام يدل على قِدَم المسـميين وتعاقبهما في تاريخ الإسلام ومنهج الإسلام. ولم تعرف الأرض، ولن تعرف دينا لله جل وعلا غير الإسـلام. ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْـلاَمُ﴾(آل عمـران:١٩)، ﴿أَفَغَيْرَ دِيـنِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْـلَمَ مَنْ فِي السَّـمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾(آل عمران:٨٣)، ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْـلاَمِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾(آل عمران:٨٥). ولذلك قال الله تعالى لرسـله وأتباع رسـله عبر التاريخ: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِـدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾(الأنبياء:٩٢)، ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾(المومنون:٥٢).

وإذن فالأمـة المقصودة هي "الأمة المسـلمة" بما تتضمنه من خصوصية في المكونات، وما تسـتلزمه من خصوصية في "الأمر الجامع" لها الذي هو الإسـلام من وحدات؛ من وحدة الإلـه، إلى وحدة الكتاب، إلى وحدة الإمام، بغض النظر عما آلت إليه اليوم في تمثلها للإسلام وتمثيلها للإسلام.

مفهوم "الواقع"

الواقـع في لسـان العرب: السـاقط والنـازل. قـال ابن فارس فـي المقاييـس: "الواو والقاف والعين أصـل واحد يرجع إليه فروعه، يدل على سقوط شيء". وعند الراغب في "المفردات" أن "الواقعة لا تقال إلا في الشدة والمكروه، وأكثر ما جاء في القرآن من لفظ "وقع" جاء في العذاب والشدائد".

أما الواقع في الاستعمال العربي المعاصر فيحتاج إلى دراسة مصطلحية خاصة؛ وصفية وتاريخية، على مدى قرن أو يزيد، وفي عدد من المجالات، لتحديد مفهومه الضخم المتشعب، كما يُشير إلى ذلك كثرة الاستعمال وتعدد المجال وهو ما لا سبيل إليه الآن، لأسباب ترجع إلى واقع الأمة نفْسه، الذي حقه أن يفقه ليعالج.

لكن لابد من تحديد المراد منه في هذه الدراسة، وذلك ما يمكن تلخيصه في:

الواقع هو ما عليه الأمر الآن. وبما أن الموضوع هو واقع الأمة، فإن المعنى سيكون:

لا سبيل إلى فقه واقع الأمة بغير إحكام أمر الأداة أدمغةً وأجهزةً ومؤسسات ومنهجًا في التوثيق والتدقيق والتحقيق، يقوم على الاستيعاب والتحليل والتعليل قبل أي تركيب، مقدمًا عند الدراسة الوصف على التاريخ، والجزئي على الكلي، إلى آخر ما يجب إحكامه من أمر الأداة لتأمين ذلك المستوى من الفهم.

الواقع هو الحالة التي عليها الأمة الآن؛ فيدخل فيه كل الجزئيات والكليات التي تتكون منها الأمة الآن، حسب حالتها الراهنة. وانسجامًا مع التحليل السابق لمفهوم الأمة، نترك التصنيف المألوف للواقع الذي يجزئ الحياة العامة إلى واقع سياسي، وواقع اقتصادي، وواقع اجتماعي... إلخ، مستبدلين به التصنيف حسب "العناصر المكونة لمركب الأمة"؛ من واقع الجمع البشري لها، وواقع وحدتها "والأمر الجامع" لها، وواقع قصدها والرسالة التي تضطلع بها.

ويقصد بواقع الجمع البشري للأمة: الحالة التي عليها الناس الذين يشكلون الجسم "المادي" للأمة، كثرة وقلّة، غنى وفقرًا، علمًا وجهلاً، صحة ومرضًا، شعوبًا وقبائل، طبقات ومستويات، مؤسسات وتنظيمات...

ويقصد بواقع وحدة الأمة و"الأمر الجامع" لها: الحالة التي عليها ممارسة الإسلام والتدين في الأمة، والروابط الجامعة المنبثقة عنه من عقيدة وعبادة وأخلاق وشريعة. ما درجة ذلك قوة وضعفًا، اتساعًا وضيقًا، صوابًا وخطأ؟

ويقصد بواقع قصد الأمة والرسالة التي تضطلع بها: الحالة التي عليها تأهل الأمة للشهادة على الناس، ومدى أدائها لها في مختلف المجالات، بالحال والمقال؛ ما درجة الأهلية وسطيّةً وخيرةً؟ وما درجة الشهود الحضاري والشهادة إمامةً وتبليغاً؟

هذا وللواقع زمن يتحرك فيه، ومجال يحيط به ويؤثر فيه أو يتأثر به.

فأما الزمن: فهو المعيش في بعديه المؤثرين: الماضي القريب، والمستقبل القريب. وهو ما قد يُسمّى بـ"العصر"، ولا يستطاع تحديده علميًّا بيوم أو شهر أو عام لتحركه المستمر، بتحرك العائش فيه. ويمكن تحديده دراسيًّا من أجل ضبط المعطيات والنتائج.

وأما المجال فهو المحيط الخارجي الذي يتبادل التأثر والتأثير مع الواقع الداخلي حسب سنن التجاور تآلفاً أو تخالفًا. وإنما يحدد بالأثر، ويصنف حسب القوة والضعف، والقبول والرفض.

وأكبر حاضر في المجال ومؤثر في واقع الأمة إلى حد "الصنع" أحيانًا أو ما يشبه "الصنع"، هو ما اصطلح عليه بـ"الغرب".

إذن فالواقع المقصود: هو الحالة التي عليها الأمة بكل مكوناتها في هذا الظرف المعيش داخل المجال الدولي المحيط، وهي تتحرك فاعلة منفعلة متفاعلة.

مفهوم الفقه

الفقه في لسان العرب: "العلم بالشيء والفهم له". وعند الراغب: "هو التوصل إلى علم غائب بعلم شاهد، فهو أخص من العلم"، وهو عند الجرجاني في "التعريفات": "عبارة عن فهم غرض المتكلم من كلامه".

وقد أحسن الحكيم الترمذي ما شاء حين قال: "الفقه بالشيء: هو معرفة باطنه والوصول إلى أعماقه". وبعد دراسة الفقه "في عشرين موضعًا من القرآن"، تبين لصاحب المنار "أن المراد به نوع خاص من دقة الفهم والتعمق في العلم الذي يترتب عليه الانتفاع به".

وهذا كله يفضي إلى أن:

الفقه فهم دقيق نافذ إلى البواطن والأعماق والأغراض.

فإذا أضيف إلى الواقع أمكن تعريفه هكذا:

فقه الواقع هو: الفهم الدقيق النافذ إلى أعماق ما يجري في الظرف المعيش والمجال المحيط.

فإذا أضيف فقه الواقع إلى الأمة صار المراد بفقه واقع الأمة هو: الفهم الدقيق النافذ إلى أعماق الوضع الذي عليه الأمة بكل مكوناتها في هذا الظرف المعيش داخل المجال الدولي المحيط.

وبتحليل التعريف إلى عناصره نجد الفهم بشروطه وهو أداة الفقه. والوضع بمكوناته وهو موضوع الفقه. والظرف المعيش بجريانه وهو الإطار الزماني. والمجال المحيط بتفاعلاته وهو الإطار الإنساني.

ولا سبيل إلى فقه واقع الأمة بغير إحكام أمر الأداة؛ أدمغةً وأجهزةً ومؤسسات، ومنهجًا في التوثيق والتدقيق والتحقيق، يقوم على الاستيعاب والتحليل والتعليل قبل أي تركيب، مقدمًا عند الدراسة الوصف على التاريخ، والجزئي على الكلي... إلى آخر ما يجب إحكامه من أمر الأداة لتأمين ذلك المستوى من الفهم.

كما لا سبيل إلى فقه واقع الأمة بغير التمكن من مكونات الوضع الموضوع، والتتبع الأفقي والعمودي لما يجري في الظرف المعيش ويتفاعل في المجال المحيط.

لا جرم أن هذا العبء ضخم، وأن التخطيط له بله إنجازه يحتاج إلى صفوة من أولي العزم، ولكن إذا وجدت الشروط وزالت العوائق، فإن الشروع بإذن الله تعالى يكون. ■

(*) الأمين العام لمؤسسة البحوث والدراسات العلمية (مبدع) / المغرب.

الهوامش

(1) أثر مدرسة المنار في تجديد فهم المصطلح القرآني (من خلال تفسير المنار)، عرض ألقي في ندوة "مدرسة المنار ودورها في الإصلاح الإسلامي" التي نظمتها المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، بالتعاون مع المعهد العالمي للفكر الإسلامي وجمعية الدعوة الإسلامية العالمية بتاريخ ٨-٩/١٠/٢٠٠٢م، القاهرة.

(2) الأمة الشهيدة، المنطلق ٢٦، نقلاً عن الأمة والإمامة لـ"علي شريعتي"، ص:٣٢-٣٣.

(3) الوثائق السياسية.

(4) نحو تصور حضاري للمسألة المصطلحية، ص:١٢-١٣.



د. إسحاق بن عبد الله السعدي*



أصالة الثقافات ومستقبل الثقافة الإسلامية

1 التمايز والتنوع في الثقافات، واقع تاريخي ومحفز حضاري تتبارى في مدارجه الأمم وتتنافس في شتى ميادينه ومجالاته... وهو في الوقت نفسه مناط اعتزاز وفخر؛ فكل أمة تباهي غيرها بثقافتها وفلسفتها في الحياة من خلال رؤيتها للإنسان والكون والحياة، وما يترتب على ذلك من اعتبارات ونماذج هي عندها بمثابة المثل والقيم العليا التي تأخذ بنفسها نحوها، وترصد ما حققت من نجاحات ومقاربات نحو غاياتها، وتعدها مصدرًا لذلك الفخر والاعتزاز.

وحتى مع تقارب عالم اليوم، وكونه اندمج في إطار حضاري عام أو كاد، يبقى لتنوع الثقافات وتمايزها، المنطق الأقوى والسند المتين من الواقع والتاريخ ومن العقل والوجدان، ولا تتنافى هذه الحقيقة مع الواقع الحضاري في شموله وعمومه، لأن المنجز الحضاري نتاج مشاع للجميع من حيث هو نتاج طبيعي لجهود البشر قاطبة، وثمرة مشتركة، وليس حكرًا على أمة دون الأخرى.

إن جوهر الحياة وسعادة البشرية وجمال العالم، بل وتحقق الوجود البشري في وضعه السوي وحياته الطبيعية، يكمن في رعاية الخصوصيات وإعطائها ما تستحق من الاحترام والتقدير والتقبل طالما هي حق مشروع وسنة حضارية.

لقد عقدت "اليونسكو" في منتصف القرن المنصرم مؤتمرًا عامًّا بعنوان: "أصالة الثقافات"، وصدر عن هذا المؤتمر بيانًا ختاميًّا جاء فيه: "إن مشكلة التفاهم الدولي هي مشكلة علاقات بين الثقافات، فمن هذه العلاقات

بيـن الثقافـات يجـب أن ينبثـق مجتمع عالمـي جديد، قوامه التفاهم والاحترام المتبـادل... وهـذا المجتمـع، يجـب أن يأخـذ صـورة نزعـة إنسـانية جديدة يتحقـق فيـه الشـمول بالاعتـراف بقيم مشـتركة تحت شـعار؛ تنوع الثقافات".

وعلـى الرغم من كون هذا المؤتمر -كمـا جاء فـي بيانه الختامـي- قد تنبأ بـ"انبجـاس جامعـة عالميـة فـي المثـل والقيم والتطلعات" كإطار ثقافي عالمي يواكب التواصل الحضاري العالمي، إلا أن البيـان المذكور أكد على مواصفات لهـذا الإطار بما لا يمكن أن يتحقق في أي ثقافة عرفها التاريخ البشـري إلا من خلال الثقافة الإسلامية طال الزمن أم قصر، وذلك لما تمتلكه هـذه الثقافـة من أصالة، ولمـا تتصف به من شـمولٍ وعالمية ورعاية للنزعة الإنسانية الحضارية التي نظَّر لها ذلك المؤتمر.

ولئـلا يوحي هذا القـول بالتعارض مع المقدمات السـابقة ومـا تدل عليـه من تمايز الثقافات وتقبل هـذا التمايز واحترامه وتقديـره، أقول إن هـذا التعارض المتوهـم مدفوع بالحقيقتين الآتيتين:

الحقيقة الأولى: كون الثقافة الإسلامية هي الثقافة الرائدة فـي مضمـار التجربـة التاريخيـة، فقـد نجحت في التسـامح مـع جميع الثقافات والتعايش السـلمي معها، بـل هي الثقافة الإيجابية في علاقاتها مع الشعوب والأمم؛ انفتاحًا عليها وإفادة منها، وبالمقابل فقد مدَّت جسـورها لسـائر الثقافات، وكانت بمثابة المدرسـة التي تخرجت فيهـا النماذج الثقافية المبدعة.

الحقيقة الثانية: كون الثقافة الغربية التي شقت طريقها نحو العالمية بعوامل ذاتية من جهة وبجهود موجهة من جهة أخرى، تتحول باستمرار نحو الحقائق الإيمانية التي تقوم عليها الثقافة الإسـلامية ابتداءً ولها السـبق إليها -أعني الثقافة الإسلامية- وكـون الثقافـة الغربية من جهةٍ أخرى تقترب شـيئًا فشـيئًا من مناهج الثقافة الإسـلامية في كثير مـن قضايا الوجود والكون والتاريخ، فهي بعبارة مختصرة كما ذكر مؤلفا كتاب "العلم من منظوره الجديد": "بصدد تحول كلّي في عناصرها المختلفة".

وذلك لأسباب عدة من أهمها كما ذكرا فيه أيضًا: "تراكم الخبرة الإنسـانية، والبحث عن الأفضل لـدى الإنسـان الغربي"، ممـا يدل على أنهـا تسـير نحـو الاعتـدال فـي رؤيتها الشـاملة... والأمثلـة علـى ذلـك مـن الكثـرة بمـكان، بيد أنني أختصرها في الأمثلة الآتية:

إن حقًّـا على المسلمـين أفرادًا وشعوبًـا وأمـة، التشبـث بثقافتهـم الإسلامية الأصيلة، فهـي سفينـة نجاتهـم -بـإذن الله- تعـبر بهويتهـم وذاتيتهم إلى بـر الأمـان وشواطـئ النجـاة في عصـرٍ يتواصل فيه العـالم بوسائـط تحمـل الغـث والسمين، والطيب والخبيث، والنافع والضار.

أولاً: العودة بها إلى الإيمان بوجود إله واحد.

ثانيًا: التأكيـد على الجانب الروحي من الإنسان وأن حياته الروحية والخلقية هي حقائق تمامًا كحياته "البيولوجية".

ثالثًـا: إدراك حقيقـة أن العلـم ليس محصورًا بالطبيعة مجـالاً، ولا بالمنهج التجريبي طريقًا.

رابعًـا: تقلص النفور والعبثية من علـم النفس والكونيات والاسـتعاضة عنهـا؛ بالغائيـة، وبـالله، وبالجمـال، وبالعناصر الروحية، وبكرامة الإنسان.

خامسًـا: بـروز المشـاعر الإنسـانية النبيلـة، كمـا فـي تقديـم الخدمـات الإنسـانية في مجـالات التغذيـة، ومقاومة المجاعـات، والعناية بالطفولة والأمومة ونحو ذلك، مما يعد فـي الحقيقة والنظرة المتجردة المنصفة، من أبجديات الثقافة الإسـلامية ومـن مقوماتهـا وخصائصها قبل أن تتشـكل هذه الرؤيـة الإيجابية في الثقافـة الغربية بقرون عدة، بل إن الثقافة الغربيـة على الرغم من هذه التحولات الجوهرية والإيجابية، لـم تتحـرر بالقـدر الكافي من عقدة الاسـتعلاء فـي علاقاتها بالثقافـات الأخـرى وبخاصة الثقافة الإسـلامية، بل لا زالت تتسم معها -بشكل أو آخر- بطابع النرجسية وعدم الاعتراف بفضلها إلا ما ندر.

إن حقًّـا علـى المسـلمين أفـرادًا وشـعوبًا وأمة، التشـبث بثقافتهم الإسـلامية الأصيلة، فهي سـفينة نجاتهم -بإذن الله- تعبر بهويتهم وذاتيتهم إلى بر الأمان وشواطئ النجاة في عصرٍ يتواصل فيه العالم بوسـائط تحمل الغث والسـمين، والطيب والخبيث، والنافع والضار. ■

(*) كلية الشـريعة، جامعة الإمام محمد بن سـعود الإسلامية / المملكة العربية السعودية.

أ.د. عمار جيدل*

لا تخف ولكن كنْ حذرًا، اِحتَطْ للأمر ولكن لا تكن جبانًا. ولستَ شجاعًا إذا أنت اقتحمت عرين الأسد دون تخطيط مسبق، أو وقفتَ مجردًا من كل سلاح أمام ذئب جريح، فذاك هو التهوّر بعينه والرعونةُ بذاتها. ومتى كان التهور شجاعة، وإلقاء النفس إلى التهلكة استبسالاً!؟

(الموازين)

* * *

عيدنا سعيد إذا أردنا

أصل العنوان فكرة مستلة مما قرأته عن الشيخ محمد البشير الإبراهيمي أمير البيان وسلطان البرهان في الكشف عن الدرر المستخرجة من القرآن وسنّة سيد الإنس والجان.

درج الناس في البلاد الإسلامية أن يدعو بعضهم لبعض، بهذه المناسبة بالسعادة في العيد وبه، ولكن هل تساءلوا فيما إذا كانوا أهلاً لنيل السعادة، بل فيما إذا كانوا أهلاً لإسعاد أنفسهم، قبل نقل هذه المعاني السامية للآخرين؟

العيد لا يحمد لذاته ولا يذم... قال الشيخ محمد البشير الإبراهيمي مخاطبًا العيد: "يا عيد!

لو عدْت على قومي بالخفض والدَعة، أو جُدْت عليهم باليُسر والسعة، لوجدت منّي اللسان الخافق بذكرك، والقلم الدافق بشكرك، ولكنّك عُدت عليهم بنهار كاسف الشمس، يوم شرّ من الأمس، فاذهب كما جئت، فلست منك ظاعنًا ولا مقيمًا، وعُدْ كما شئت، فلست مني حميدًا ولا ذميمًا".

فالعيد السعيد، ما تصممه العقول وتتحقق به القلوب، وتبذل لتحقيقه في شعاب الحياة السواعد. فالعيد السعيد ما نصنعه؛ فإن شقينا فيه فهو حصاد ما زرعناه في سالف الأيام، وإن سعدنا به فبفضل بذل وصناعة لا تجتمع والخمول والكسل والسبهللة، قال الشيخ: "إنما الناس لأعمالهم، سعد العاملون وشقي الخاملون (...) فلو عمّرنا أيام العام بالصالحات، لكنت (العيد) لنا ضابط الحساب وحافظ الجراب، ثم لم تلتْنا من أعمالنا شيئًا ولم تبخسنا من أزوادنا فتيلاً، ولكنّنا قصّرنا وتمنّينا عليك الأماني، وتبادلت ألسنتنا فيك أدعية لم تؤمّن عليها قلوبنا، ثم ودّعناك وانتظرنا إيابك، وأطلنا الغيبة واستبطأنا غيابك".

لقينا هذا العيد و ما سبقه من الأعياد بالاكتئاب، وتلك نتيجة الاكتساب، وكيف لا يكون كذلك، وقومنا كما قال الشيخ: "يتخبّطون في داجية لا صباح لها، ويفتنون في عام مرة أو مرّتين، ثم لا يتوبون ولا هم يذكّرون، وأراهم لا ينقلون قدمًا إلى أمام إلا تأخّروا خطوات إلى الوراء (...) حصرت همّها في إثارة حرّة على حرّة، وتسخير نفسها لضرة، نكاية في ضرّة"، ثم يذكر الشيخ متسائلاً عن سبب البلاء الذي حلّ بالأمة فيقول: "وأفكّر في علّة هذا البلاء النازل بهم، وفي هذا التفرّق المبيد لهم، فأجدها آتية من كبرائهم وملوكهم، ومن المُعوّقين منهم الذين أشربوا في قلوبهم الذلّ، فرئموا الضيم والمهانة، واستحبّوا الحياة الدنيا فرضوا بسفاسفها، ونزل الشرف في نفوسهم بدار غريبة فلم يُقَم، ونزل الهوان منها بدار إقامة فلم يَرِم...".

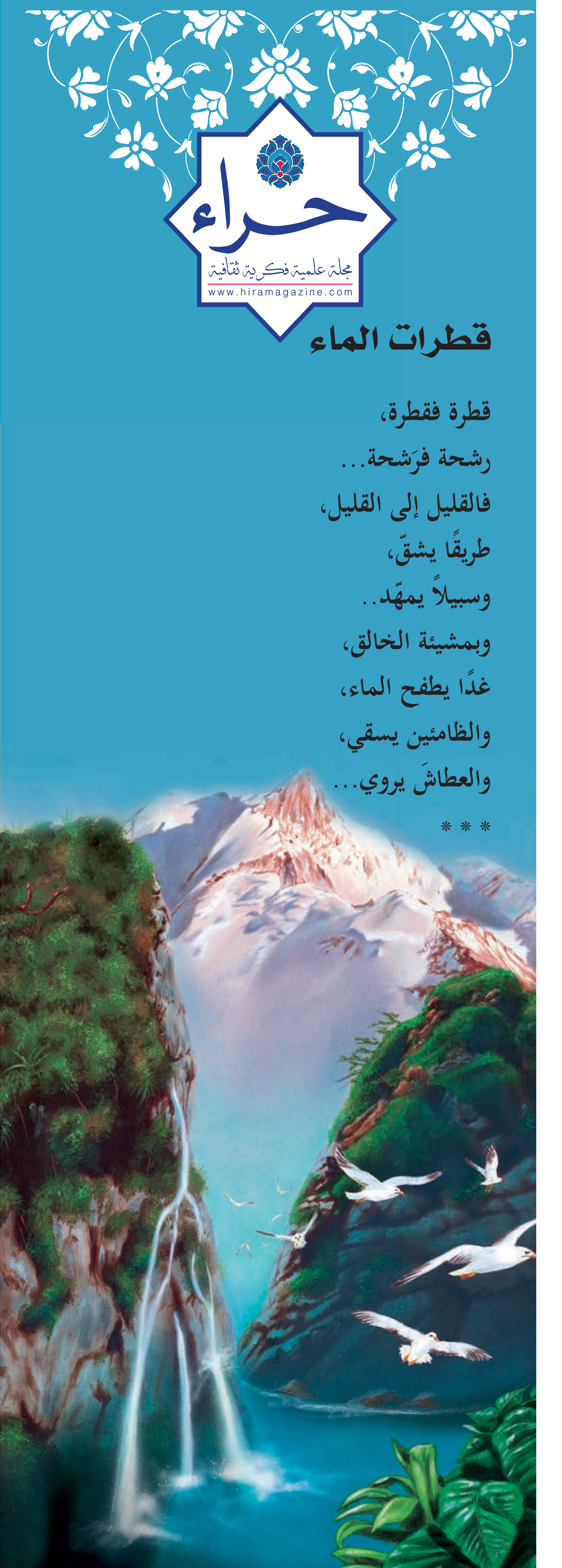
كيف لنا أن نسعد بالعيد والمسلمون "ورثوا من الدين قشورًا بلا لباب، وألفاظًا بلا معان، ثم عمدوا إلى روحه فأزهقوها بالتعطيل، وإلى زواجره فأرهقوها بالتأويل، وإلى هدايته الخالصة فموّهوها بالتضليل، وإلى وحدته الجامعة فمزّقوها (...) قد نصبوا من الأموات هياكل يفتتنون بها ويقتتلون حولها ويتعادون لأجلها، وقد نسوا حاضرهم افتتانًا بماضيهم، وذهلوا عن أنفسهم اعتمادًا على أوليهم، ولم يحفلوا بمستقبلهم لأنه غيب والغيب لله، وصدق الله وكذبوا، فما كانت أعمال محمد وأصحابه إلا للمستقبل، وما غرس محمد شجرة الإسلام ليأكل هو وأصحابه ثمارها، ولكن زرع الأولون ليجني الآخرون".

جاء العيد والهوى في ممالك المسلمين يأمر وينهى، والاستبداد في كثير من بلدانهم بلغ المنتهى، وكيد العدو الأجنبي بمعاونة خدمه في الداخل يسلّط الأخ على أخيه، لينام هو قرير العين، لِيَكِل أمر المسلمين إليهم، فيقومون مقامه في تخريب الديار ومنع النهضة الحضارية المنتظرة بهدر الطاقات فيما لا طائل منه، وبعث المسائل الميتة المميتة من مراقدها على حين غفلة من الجمارك الفكرية المعطّلة عن الاشتغال، مما يجعل التفكير في النهضة من سابع المحال في ظل وضعنا الراهن.

إذا أردنا أن يستعيد العيد معناه الديني والإنساني والنفسي والاجتماعي، فيكون العيد دينيًّا شكرًا بعد تمام عبادة تتحقق بها القلوب وتنار بها العقول وتُرى عمارة في الأرض، ويعود في هذا اليوم مال الله الذي استودعه الغني على فقير يدعو له بحفظ النعمة من الزوال، لأنه كان أمينًا في نقل الأمانة التي استأمنه الله عليها.

نفرح بالعيد حين يكون يومنا أحسن من أمسنا؛ في السياسة والتربية والتعليم والاقتصاد والاجتماع، وتستعيد أمتنا الصدارة الحضارية، ويعود مال الأمة على الأمة... نسعد بالعيد عندما يقدّم خيارنا في كلّ شيء، نسعد به عندما تكون الكفاءة المعرفية والأهلية الأخلاقية معيارًا للتقديم، نسعد عندما يستعيد المجتمع المبادرة التي تتوافق مع الأوامر الإلهية في كل شؤون الحياة، نسعد حينما تسعفنا شهواتنا فنتحرر من قبول السوم فضلاً عن الترشّح للبيع أمة وشعبًا حكامًا ومحكومين، نصرّح بملء فينا وبكّل قوة أننا لسنا أمة للبيع، وأننا أمة لا تقبل الضيم والإذلال.

من ظنّ أنّ الشعوب والمجتمعات قد تسعد بما لا يُسْعد، فهو مجانب للصواب، مخالف لما أرشدت إليه الألباب، منازع لما درجت عليه سنة (قوانين) رب الأرباب. الأمم لا تسعدها الآلام والشجون إلا إذا تعطّلت فيها العقول والقلوب باللهو المجون، وطمست المواهب بفعل القرب من المحلي أو الأجنبي من الكانون (الموقد رمز الدفء)، واندثرت فيهم المروءة، وقلبت فيهم الموازين فصار التحريش بين أهل الوطن



قطرات الماء

قطرة فقطرة،
رشحة فرَشحة...
فالقليل إلى القليل،
طريقًا يشقّ،
وسبيلاً يمهّد..
وبمشيئة الخالق،
غدًا يطفح الماء،
والظامئين يسقي،
والعطاشَ يروي...

***

الواحد في الصحافة مهنية وحصافة، وتعريض وحدة المجتمع والأمة للخطر سياسة، وتزعّم أردَإِ السفلة نباهة، وتقدّم من خلاق له كياسة (...) حتى أصبحت الروائح التي تزكم الأنوف مقدمة لما لها من نفاسة (...) الأمم لا تسعد إذا كانت لغة التواصل المخلب والظفر والناب، والميل الصريح عن كل قول صواب، لأنه صدر عن (مشاغب كذّاب)، الأمم لا تسعد بتعطيل إرادتها بمزيّف من الانتخاب، أو حيل (دهاء)ساسة لأجل أن تهنأ الأمة بطول غياب، في تعمير الأرض والمراقبة والحساب، لا يرتاح لها بال حتى تراقب الكلّ حتى البواب.

عيدنا سعيد إذا نوينا بحق وصدق ثم فعّلنا وشغّلنا تلك النية في شعاب الحياة، فيتحول حالنا إلى أحسن حال، فيكون يومنا تصميمًا على ترك التخلّف بكل أشكاله وألوانه، فنطرده من تعليمنا ومشهدنا السياسي والاقتصادي والاجتماعي، التخلّف وفق المعايير الإنسانية الجامعة.

هل يقبل من يريد أن تكون أمته على أفضل حال إيمانًا وأمنًا واستقرارًا وتنمية، بالدونية، ورأس ما يصنعها وفق المتفق عليه بين العقلاء، عُبَّاد ذواتهم بعنوان حبّ الأمة والوطن، فيخاطرون بالأمة لأجل الحفاظ على حطام زائل من الدنيا، لأن حب الوطن والأمة لها مقتضيات جلية، تتجلى في أن تبذل لهما كل ما تقوى عليه من غير انتظار عِوَض، ومن بذل لأجل انتظار العوض، فهو محب للعوض لا للوطن.

عيدنا سعيد إذا أردنا، فهل نسترد إرادة السعادة؟ ونكتشف آليات تفعيلها وتشغيلها في شعاب الحياة، فنسعد بأيام هَنيّة في التعليم والتربية والسياسة والاقتصاد ثم تتوج بالبعث الحضاري للأمة، وأمة هذا شأنها تنأى بنفسها من أن تبقى أمة للفرجة (تتفرج عليها الأمم لأنها أشبه بالبهلوان)، لتتحول وفق سنن التغيير إلى أمة الشهادة ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾(البقرة:١٤٣)، من فكّر ونوى وعمل على إسعاد يومه، فغده من جنسه إن داوم عليه، وهذا نتمنى أن نكون معه ومنه، ونقول له عيدك القادم سعيد، لأن السعادة اكتساب، "إنّما هي أعملنا ردّت إلينا"... وإلى عيد آخر. ■

(*) كلية العلوم الإسلامية، جامعة الجزائر / الجزائر.

د. مريم آيت أحمد*

ثقافة الحوار مع الآخر لدى الشباب
ودورها في التواصل الحضاري

في بيئة عالمية مشحونة بثقافة الصدام الحضاري والاسلاموفوبيا، يتأكد الحديث عن العلاقات المفترضة بين الحضارات والثقافات في هذا العالم، التي لا زالت تحتفظ لنفسها بمقومات البقاء والاستعداد للنمو والنهوض.

وتبدو قيمة هذا الموضوع بعدما دأب مفكرو الغرب والإسلام على حد سواء على استعادة طرح سؤال كبير مركب من أسئلة تفصيلية عقب كل تحول استراتيجي يبدو فيه العالم متجهًا نحو مرحلة جديدة، يتعلق بماهية طبيعة الصراع بين الأمم والشعوب، وما بين الرفض المطلق أو القبول المطلق، تعددت المناهج وتباينت الرؤى واختلفت المشاريع والمدارس. ومع العديد من الإخفاقات التي شهدها العالم الإسلامي أمام الخلل العالمي الناتج عن أحادية القطب وازدواجية المعايير في تطبيق المواثيق الدولية، وطرح مخططات في اختراق



جدار الأمن الثقافي والهوية الإسـلامية (التدخل الاستعماري بالإرهـاب الدولـي لشـعوبه فـي إطـاره الجغرافـي / الصـور النمطية المشـوهة للإسلام وثقافته إعلاميًّا وسينمائيًّا وسياسيًّا وتربويًّا وفكريًّا / إلصاق تهمة الإرهاب بكل المنتمين لدائرته / استفزاز مشاعرهم بالإساءة لمقدساتهم ونبيهم ﷺ...).

فـي هـذا المنـاخ القلـق، ولشـدة الغمـوض المحيـط باحتمـالات تطـور العلاقات المسـتقبلية بين شـبابنا والآخر، واحتمالية سـيادة اللاأمـن الفكري، فيكون الديـن هو المتهم الوحيـد بالتطـرف أو الإرهـاب، بحيـث أصبـح الـكل يـردد التطرف الديني؛ والغرض توجيه نظام العالم إلى خطر وهمي مـن الديـن لعزلـه عن واقـع الحيـاة. فهل صحيح أن شـباب العالم الإسلامي كلهم متطرفون لأنهم يدينون بدين الإسلام؟ هذا الإشـكال، ينبغي أن يتصدى لدراسـته شـبابنا الإسـلامي ليـس ردًّا للتهـم الموجهة إليه، وإنما لإعـادة الدور النهضوي لحضارتنـا، وإقامة ميزان العدل في فهم ذاته ومقوماته الدينية والفكريـة ومؤهلاتـه العلمية التي بها يتم بناء جسـر التواصل الـذي يفهم لغتـه الآخر بعيدًا عـن التعصب والنظـرة الدونية لمرتكـزات حضارتنا الإسـلامية. ولا شـك أن الحديث عن الشـباب وحوار الحضارات صراعًا أو حـوارًا، يحتمل الكثير من الالتباس والخلل. فأية حضارات هي المقصودة بالحوار؟ هـل المقصود أن يتحاور شـبابنا مع الحضـارة الغربية، أم مع الحضارات الشرقية من عربية وإسلامية أو بوذية وشنتوية؟

ثـم ما المقصود بالحوار؟ فهل المقصود حوار بين الغرب ثقافةً وحضارةً وسياسةً وجيوشًا وإعلامًا؟ هل المقصود حوار دينـي بين الدعاة والمبشـرين، أم أن المقصود حوار سياسـي بين زعامات سياسـية تمثِّل -بشـكل أو بآخر- رموز المصالح المتناقضة لبلدان مختلفة؟ هل يتم الحوار على أسـاس القول الاستشـراقي بـأن العقـل للغرب والـروح والخرافة للشـرق؟ هل يمكن أن يتحاور شـبابنا مع الآخـر تكنولوجيًّا واقتصاديًّا بمعـزل عن الثقافـة، أم أن المطلوب حـوارٌ ثقافي يتحقق في تفاعـل كريم وحـيّ ومنفتح بين مختلـف المرجعيات الثقافية فـي الشـرق والغـرب، لأن تحـدي الحـوار أضحـى يحمـل الجميـع علـى مواجهته؟! فمـاذا يجب علينا عملـه كي نكون أندادًا حقيقيين في هذا الحوار؟ هل سنحاور الحضارة الغربية من خارجها أم من الداخل؟ هل يمكن أن نتفاعل مع حضارة ما في هذا العصر وأن نبقى خارجها؟ فثمة قصور جوهري لن نستطيع بدون تفكيك أسبابه بناء حوار حضاري منتج لشبابنا.

إن حـوار الحضارات لا يعفينا من ضـرورة الرؤية النقدية لواقعنـا، بـل لابد من القيام بشـكل حثيث بنقـد ذاتنا والعمل علـى الخـروج مـن الحالـة الفصاميـة العميقة التـي تمتد من الفـرد إلـى المجتمع، ومن جيل الشـيوخ إلى جيل الشـباب، الخروجِ من نرجسية نظرتنا إلى التاريخ والتراث، الخروجِ من وهـم إمكان تمثل الحضارة دون التلوث بها فكرًا ونمطَ حياة إن لـم نشـارك في إنجازها ونسـاهم في بنائهـا. وما لم ندرك الشـرط التاريخـي لتفـوُّق الغـرب وحضارته، ومـا لم نمتلك أسس التقدم الراهن الذي حققتْه حضارة الغرب، فلن نستطيع خوض الحوار الحضاري بالجدارة التي تستحقها حضارة مثل حضارتنا العربية والاسـلامية. فكيف سـيجري حوار الشباب الحضاري من خـلال الموقف المجتمعي الفصامي بين ثنائية ثقافـة التقليـد والتوفيـق، ثقافـةِ الانبهـار والاسـتيلاب، ثقافةِ الانعزال والاستتباع المطلق؟

الشباب وسؤال الحوار

يشكل الشباب العربي بؤرة وجوهر التغيير... فكما أن للآخر دوره فـإن للشـباب أدواره، تتوزع وتختلف تتصادم وتتكامل، لكنهـا في النهايـة تبقى مرتعًا تنمويًّا يسـتدعي إعـادة التكرير من أجل الاضطلاع بشـباب قـادر على تحمل أعباء المجتمع العربـي، قـادرٍ علـى التطويـر والتطهير، قادرٍ قبـل ذلك وذاك على صناعة التعبير الحر غير المنمط وغير الملوث، بل تعبير مبنـي على إعمـال الفكر من أجل حوار شـبابي عربي-عربي أولاً، وحـوار شـبابي عربي-غربي ثانية، غايتـه إعادة الاعتبار إلى الجوهر الاجتماعي للشـباب لتحقيق مشاركته الفعلية في الحياة العامة بما في ذلك الحوار الثقافي.

فكيف يمكن للشـباب أن يلعب دوره الريادي في تحقيق الحـوار الثقافـي؟ ما هـي مكامن ضعف ذلك الحـوار ونقاط قوته في علاقته بالشباب؟ أيّ علاقة يمكن أن يشكلها الشباب العربـي فـي بنـاء ثقافة الحـوار الثقافـي؟ هذه أسـئلة وغيرها تلاحـق مفهوم "الحـوار الثقافي" في علاقته مع فئة تمثل دورًا هامًّا في عملية البناء الحضاري، فئة شباب العالم الإسلامي.

لا شـك أن لـكل مفهـوم مقابـلاً، ولـكل مقابـلٍ مقابـلاً مضـادًّا؛ فالصمـت مثلاً، يوحي بوجـود مفاهيم دلاليـة تُنتقد بمفهوم الحديث الذي بدوره يؤشـر بوجود مقابل الأول، أي الصمـت. فإذا تمكنّا مـن تناول كل المفاهيم على حدة، فمما

لا ريـب فيـه، في أطراف التحليل سـيتأجج لنا سـؤال منطقي يسـتدعي طـرق أبواب المفهـوم المضاد للوصـول إلى معنى مضاد للمضاد. ولا سـيما أن التحديات التي تواجه شبابنا في المجتمعات العربية والإسـلامية ليسـت بالقليلة ولا باليسيرة، وتأتي في مقدمتها التحديات الثلاثة التالية:

١- الازدواجية: فالسـمة البارزة لدول ما بعد الاسـتعمار القديم، هي الازدواجية التي تسـبَّبت في انشـطار المجتمعات إلـى قسـمين لا تجمعهما إلا الرقعة الجغرافيـة؛ "دعاة الثقافة الأصليـة" و"دعاة الثقافة الغربية"، ممـا جعل الصراع الفكري داخل المجتمعات العربية أمرًا طبيعيًّا تتوارثه الأجيال، وبالتالي سـادت ثقافة الاحتـراب التي تتغذى بالنفـي والنفي المضاد، وغابـت قنوات التواصـل والحوار. ولابد لنـزع فتيل الحرب الأهلية الثقافية التـي تتهدد مجتمعاتنا، من تجاوز الازدواجية بابتـكار صيـغ تركيبية تعمـل على إدماج "الآخـر" أثناء عملية إعـادة بنـاء الذات؛ هـذه العملية التي لو أنهـا التزمت بتحديد التحديات القائمة وترتيبها حسـب سُـلَّم الأولويات، لظهر أن الصراعات الداخلية التي تسـتنزف طاقات مجتمعاتنا إنما هي ناتجـة عن تناقضـات ثانوية واهيـة بالمقارنة إلـى التناقضات المركزية لهذه المجتمعات.[١]

٢- تشتت القوى الفكرية في تحديد ماهية الحوار: تتطلب طبيعـة التحديـات، تجاوز الخلافـات الداخليـة والتناقضات الثانويـة، حتى يتأتى اجتمـاع كل القوى الفكرية الصادقة على أهـداف محددة ترتبط بطبيعـة التحديات الحضارية. وفي هذا المضمار، يجب ترشـيد الشـباب لتشـكيل جبهـة ثقافية على أرضية فكرية تتكون أسسها من القواسم المشتركة.

وفي سـياق الانتقال بالشـباب من إشـكالية تشتت القوى الفكريـة في تجاوز خلافات الذات لحوار الآخر، يتعين علينا واجبًـا توجيهـه لمعرفة مَن الآخر المرشـح لعقد الحوار معه، بحيـث لا يوجد لدينا رؤيـة واضحة لماهية الحوار ومضمونه الحقيقـي؛ هل هو حوار حضارات أم حـوار ثقافات أم حوار أديـان؟ هل الحوار مـع الغرب أم مع حضـارات أخرى؟ وإنْ كان مع الغرب، فهل الغرب واحد أم متعدد؟

موقفنـا من الحـوار هو دائمًـا دفاعي تبريـري يدور حول القضايـا التي يفرضهـا الآخر علينا، يصوغها في شـكل اتهام يرمينـا به فنبدأ في شـحذ الهمم لدرء شـبهة هـذا الاتهام دون أن نقدم أنفسـنا حقيقةً للآخر بشـكل إيجابي، فهل من خطط إستراتيجية لبناء ثقافة حوار شبابي حضاري يؤدي إلى إشراك فاعلينـا وكوادرنـا في التنافس الحضـاري العالمي؟ هل عملنا علـى صياغـة لغة حوار ممنهجـة علميًّا بدَلاً مـن لغة حوارية ضعيفـة قد تسـاهم في كثيـر من الأحيان إلـى تعزيز الحواجز لا إزالتها؟[٢]

٣- افتقاد الرؤية المتوازنة للحــوار التام والحوار الناقص: يشـير مصطلـح الحـوار إلـى درجـة مـن التفاعـل والتثاقـف والتعاطـي الإيجابي بيـن الحضارات التي تعتني به، وهو فعل ثقافـي رفيـع يؤمن بالحق فـي الاختلاف إن لـم يكن واجب الاختلاف، ويكـرس التعددية، ويؤمن بالمسـاواة. وعليه فإن الحوار لا يدعو المغاير أو المختلف إلى مغادرة موقعه الثقافي أو السياسـي، وإنما لاكتشـاف المساحة المشـتركة وبلورتها، والانطـلاق منها مجـددًا منـذ أن توقفنا عن صناعـة تاريخنا، ونحـن عبـارة عن موضـوع لفعل الغـرب، يسـتثيرنا فننفعل، ويأتي ردُّ فعلنا موزونًا ومقاسًا على فعله. واليوم شبابنا محتاج لفعـل تواصلي إنجازي حضاري، وليس لرد الفعل الآني غير التواصلي. أكثرنا الحديث عن دمج الشباب في الحوار، لكن لم نحدد لهم صياغة لآليات وأدوات هذا الحوار.[٣]

الحوار التام والحوار الناقص

الحـوار التام حوارٌ اسـتخلافي تصل اللُّحمة فيـه بين النظري والعملـي. وهـو حوار يتم بيـن "الذات"، ويسـتند فيه البحث النظـري علـى "الاجتهـاد الإجماعـي"، كما يتقـدم العمل فيه فـي مجال التطبيق على أسـاس "التواصـي بالصبر". في حين يكـون الحوار الناقـص حوارًا فصاميًّا، قوامه الزيف والشّـرخ بيـن النظري والعملـي، وهو حوار يجري بيـن "الآخر". لكن من الممكن أن يتم هذا الضرب من الحوار (الحوار الناقص) بين مكونات الذات حينما يختل لديهم شرط التواصي بالحق والتواصي بالصبر. فالضربان من الحوار، يمكنهما الجريان في الملة الواحدة أو بين الملل والفلسـفات والثقافات المختلفة. فوتيرة الحوار تراتبية قد تقف عند "حوار التعايش"، وقد ترقى إلى رتبة "حوار التعارف".

والحوار الذي نسعى ترسيخه بين شبابنا، هو حوار يحتاج إلـى إعـادة تأصيله وفق رؤية اجتهادية موصولة ما بين العقلي والعقـدي، وهو مختلـف عن الحوار الذي يسـتند إلى باعث الضعـف والتراخـي والانكسـار والانهـزام وبالتالـي التقليـد والاسـتتباع المطلـق. الحـوار الشـبابي مع الآخـر، ينبغي أن

يقوم على إرادة القوة بكل شـروط مقدماتها الروحية والمادية عقليًّا وعقديًّا ومعرفيًّا واقتصاديًّا وأخلاقيًّا وتكنولوجيًّا، بحيث تتشـابك وتتناغـم إرادة القوة مـع إرادة الفعـل والإنجاز التي تمليهـا قوانيـن لغة التلاقي والحوار بين البشـر ضمن أنسـاق حضارية مختلفـة. ومن هنا، فإن منطق التدافع يفرض تعايش الحوار والاستعداد لتجنب الصراع المفتعل ضد المستضعفين، والاستضعاف نقيض العلو المشروط بالإيمان. وهذا يعني أن شـرط الحوار السـوي، ما كان مسبوقًا بإعداد القوة في صورة إنمـاء مسـتدام، يبدأ بالنفير الحضـاري لا بالصدام الحضاري المفتعل والاستنفار الذي يستند إلى الإثارة.(٤)

إن مقاربـة رؤية حوار الشـباب مع الآخـر، تحتاج صياغة رؤية إسـلامية اجتهادية ناضجة، تؤسـس لنمـط من "الحوار" يقـوم علـى إرادة واجتهاد، قـوة وأخلاق... حـوار يقوم على خدمة الإنسـان المسـتخلف في الأرض تحت القيم المتعالية لا فوقها، ليكون هذا الأخير مفتوحًا على التواصي الاجتهادي بالحق والصبر(**) وبذلك تقارب الرؤية منظورًا حواريًّا أخلاقيًّا في إطـار الواجب "أخلاقيًّا"، الممكـن "تحققًا". لكن إلى أيّ حـد يملـك شـبابنا أدوات وآليـات الحـوار الحضـاري زمن العولمة ونظريات الصدام الحضاري؟! ■

(*) كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن طفيل بـ"القنيطرة" / المغرب.

الهوامش

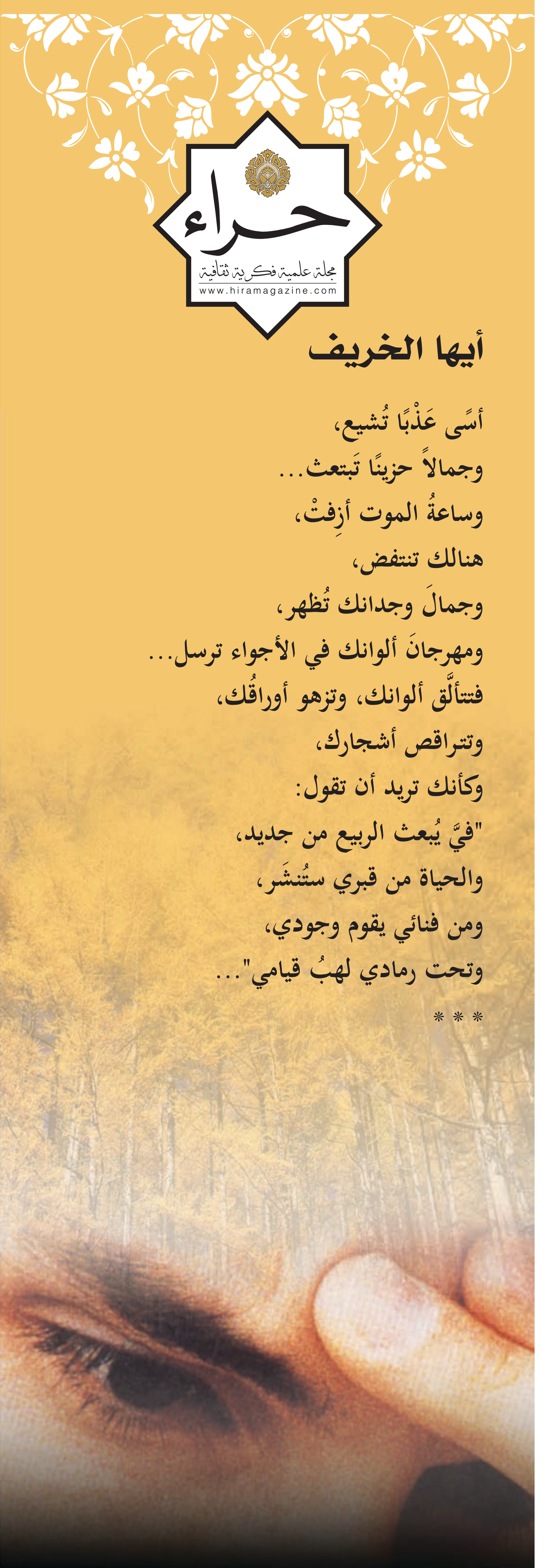
(١) إنماء المجتمع الأهلي، كتاب الكلمة ٢، بيروت: منتدى الكلمة للدراسات و الأبحـاث، الطبعـة الأولـى، عـام ١٩٩٦، مـن المجتمـع يبـدأ الإنماء والنهوض، معن بشور، ص:٧٢.

(٢) تحديـات العولمـة والأبعـاد الثقافيـة الحضاريـة والقيمية رؤية إسـلامية، للكدتـور نادية مصطفى، مجموعة مؤلفين مسـتقبل الإسـلام، دار الفكر العربي، دمشق ٢٠٠٤.

(٣) حوار الحضارات في عالم متغير لـ"السيد ياسين" المؤتمر الدولي حول صراع الحضـارات أم حوار الثقافات، ص:٣٧، مطبوعات دار التضامن ١٩٩٧.

(٤) العلاقـات الدوليـة في الإسـلام، لسـيف الدين عبد الفتـاح، ج:٢، مدخل القيـم إطـار مرجعـي لدراسـة العلاقـات الدولية فـي الإسـلام، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة ١٩٩٩.

(**) يقـارب الدكتـور محمـد عابـد الجابري مفهـوم التنمية فيقـول: إذا كانت التنمية هي "العلم حين يصبح ثقافة" فإن التخلف سيكون هو "العلم حين ينفصل عن الثقافة"، أو هو "الثقافة حين لا يؤسسـها العلم". راجع وجهة نظـر: نحو إعادة بناء قضايـا الفكر العربي المعاصر، للدكتور محمد عابد الجابري، الطبعة الثانية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٩٤.



أيها الخريف

أسًى عَذْبًا تُشيع،
وجمالاً حزينًا تَبتعث...
وساعةُ الموت أزِفتْ،
هنالك تنتفض،
وجمالَ وجدانك تُظهر،
ومهرجانَ ألوانك في الأجواء ترسل...
فتتألّق ألوانك، وتزهو أوراقُك،
وتتراقص أشجارك،
وكأنك تريد أن تقول:
"فيَّ يُبعث الربيع من جديد،
والحياة من قبري ستُنشَر،
ومن فنائي يقوم وجودي،
وتحت رمادي لهبُ قيامي"...

* * *

د. يحيى جاد*

الصورة النمطية

١

"الصورة النمطية" هي تصور ذهني معين عن شـيء ما، ماديّ أو معنوي يتم تعميمه على كل أجزاء / مكونات / أفراد هذا الشيء. ومن ثم فخصائصها تكمن في الآتي:

١- التبسيط الاختزالي: وفي ذلك تجاهل لتركيبية الإنسان والواقع والأحداث والأسباب، وهذا يستوجب عمقًا أكبر في التحليل.

٢- التعميم الكاسح: وفي ذلك تجاهل للتنوع والاختلاف والفروق دون اعتبار -مثلاً- لِمَا بين الأفراد من فروق فردية وسمات شخصية خاصة، وهذا يستوجب مراعاة التمايزات.

٣- التصلب: أي رفض تغيير هذا التصور الذهني لاحتوائه -في ذهن حامل الصورة النمطية- على أحكام قِيَمية (أُلصِقَت بالشيء محل الصورة النمطية)، مشحونةٍ بمشاعر ذاتية وعواطف شخصية (تكونت وترسبت وترسخت عبر الزمن)، وفي ذلك تجاهل لحقيقة الصيرورة / التغير / التجدد التي تتميز بها الجماعات والمجتمعات البشرية.

وهذا يستوجب مراجعة الصورة النمطية كل فترة حتى ولو كان قد تم تكوينها بصورة منهجية صحيحة.

وآليات تكوين وإنتاج ونشر "الصورة النمطية" كثيرة، من أهمها:

١- مختَلَف أدوات الثقافة الشعبية: الأمثال، القصص، السِّيَر، الأساطير... إلخ.

٢- مختلف الأدوات الإعلامية: صحافة، إذاعة، تلفاز، إنترنت، كتب بمختلف أشكالها وأنواعها.

٣- التجارب الشخصية الواقعية الحياتية.

٤- الخطاب السياسي الحكومي الرسمي، وتزيد ضراوة تأثيره في البلاد الاستبدادية والفاشية.

٥- مضمون المناهج التعليمية بمختلف أشكالها وأنواعها وموادها ومستوياتها، وتزيد ضراوة تأثيره في البلاد الاستبدادية والفاشية.

وبناء عليه، فالصورة النمطية هي "قولبة" تقود إلى "الجمود" الذي يؤدي إلى "التعصب"... عبر متتاليتنا: "قولبة فجمود فتعصب"...

وفي القولبة: اختزالٌ، وفي الاختزال: جهلٌ وفهمٌ أعورٌ منقوص يؤدي إلى سوء التعامل مع الظاهرة / الأمر / الشيء.

وفي الجمود: تكلسٌ يؤدي إلى السقوط في "جُب الأوهام"، بتكرار سوء التعامل مع الظاهرة / الأمر / الشيء، ومن ثم استفحال أمرها وتفاقم مشكلاتها، وهذا بدوره يؤدي إلى السلبية تجاهها بإعلان العجز عن مواجهتها، بلسان المقال حيناً، وبلسان الحال في أكثر الأحايين.

وفي التعصب: تمركزٌ حول الذات، ونفيٌ للآخَر، وسقوطٌ في "جُب الأنا والذاتية والفردية"... ومن ثم استحكام حلقات المشكلة حول الرقبة ■

(*) طبيب وباحث مصري.

أ.د. زيد بوشعراء*



الإيمان باليوم الآخر

رؤية قرآنية لوظيفته الإصلاحية

هـ اهنا قبس من نور القرآن... قبس من قصة ذلك التفاعل الممتد بين حياتين؛ بين الدنيا والآخرة... قصة تأثير دنيا الإنسان في آخرته وتقريرها لمصيره الأبدي في مقابل تأثر دنياه بالآخرة سعادة و شقاوة عندما يؤمن باليوم الآخر ويوقن به، وعندما يكفر به أو يظنه ظنًّا أو يغفل عنه أو ينسى لقاء ربه.

إن الله الذي ﴿لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾، بالخلق أعطى الإنسان فرصة حياة، وبالوحي بين له المنهج الذي يغتنم به هذه الفرصة ويدبر أمر هذه الحياة، وأمره بإتباعه، وأخبره أنه راجع إليه ليريه أعماله ويجزيه عنها، فإما إلى الحياة التي هي خير وأبقى، وإما إلى المصير الذي هو أسوأ.

ولقد جعل سبحانه مقصد كل رسالاته؛ ترسيخ الإيمان باليوم الآخر في القلوب، ذلك هو نص القرآن: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاَقِ ۞ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لاَ يَخْفَى عَلَى اللهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ۞ الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لاَ ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾(غافر:١٥-١٧).

والسر في نيل "إنذار يوم التلاق" لهذه المنزلة حتى كان من ثوابت وحي الله، هو ثمراته الطيبة المباركة التي يؤتيها في كل زمان ومكان تزكية للأنفس وإصلاحًا للمجتمعات.

الاهتداء بالقرآن ثمرة الإيمان بالآخرة

إن القرآن الكريم بما فيه من التبيان لكل شيء والهداية إلى كل رشد كما قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾(النحل:٨٩)، وقال: ﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾(الجن:٢)، هو الدستور المعصوم المحيط الوحيد، الذي يمكن أن يمد البشرية بالقواعد المحكمة والتعاليم المناسبة لإصلاح الأفراد

والمجتمعات، لكن باب نيل ذلك منه مسدود إلا في وجه الموقنين بالآخرة، فهم وحدهم المؤهلون للاهتداء بهدى القرآن كما قال الله تعالى: ﴿طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ۞ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ۞ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾(النمل:١-٣)، وقال أيضًا: ﴿الم ۞ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ۞ هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ ۞ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۞ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(لقمان:١-٥).

واضح من هذا أن الإيمان بالآخرة، يؤهل صاحبه للاهتداء بهدى القرآن ليس بصفته اعتقادًا مجردًا، بل من حيث هو طاقة منتجة للطاعة... والحد الأدنى من الطاعات، الذي يبدأ معه القرآن في إعطاء هداياته للمؤمنين، هو إقام الصلاة وإيتاء الزكاة -كما نصت على ذلك الآيات الثلاث السابقة- لاهتداء لهم بالقرآن قبل حدوث هاتين الطاعتين منهم، ثم إنهم بعد ذلك كلما ازدادوا طاعة ازدادوا اهتداء.

يؤكد أن الاهتداء بالقرآن رهين بالإيمان المثمر للطاعة قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(المائدة:١٥-١٦)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾(يونس:٩).

وفي أم القرآن إيماء إلى هذا المعنى، فقد استهلت السورة بالإيمان بالله واليوم الآخر: ﴿اَلْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ اَلرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۞ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾(الفاتحة:٢-٤)، وتوسطها حديث عن طاعة الله والاستعانة به: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾(الفاتحة:٥)، وختمت بطلب الهداية: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾(الفاتحة:٦). وهذا الترتيب يشير إلى أن الإيمان بالله واليوم الآخر يثمر طاعة الله، وأن طاعته تثمر الاهتداء... فالفاتحة إذن، لم تجمل مضامين القرآن فقط، بل لخصت منهجه التربوي أيضًا.

إن المسلمين يوفقون تمام التوفيق عندما يعاملون الإيمان باليوم الآخر بنحو ما عامله القرآن، وينزلونه المنزلة التي أنزله، ويوظفونه التوظيف الذي وظفه. إنهم يوفقون عندما يجعلونه روحًا لكل برامجهم الهادفة إلى بناء الإنسان كما جعله الله روح كل كلامه المنزل.

التزكي بالقرآن ثمرة الإيمان بالآخرة

لقد استعمل القرآنُ الإيمانَ بالآخرة على نحو فعّال وهو إيراده لأنواع الوعيد الأخروي والدنيوي في مواطن متنوعة ومقرونًا بأعمال شتى، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾(طه:١١٣).

والقرآن نفسه ينص على أنه لا يؤثر تأثيره هذا تقوى وتذكرًا إلا فيمن يؤمن باليوم الآخر، كما قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾(ق:٤٥)، وقال: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾(الأنعام:٥١).

فقه القرآن ثمرة الإيمان بالآخرة

الإيمان باليوم الآخر، يفضي بقارئ القرآن ومتدبره إلى التقوى، فإذا كان ممتلكًا لأدوات العلم صار بتقواه تلك؛ قادرًا على "فقه القرآن"، أي متمكنًا من الغوص في أعماقه واستخراج ما خفي من معانيه وأسراره كما قال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ﴾(البقرة:٢٨٢)، أي "يؤتيكم فهم ما يلقى إليكم" كما قال القرطبي... والفهم أدق من العلم وأعمق، ومن لا يتقي الله من العلماء، لا يوفقه الله لفهم كلامه.

وأما الذي لا يؤمن بالآخرة، فهو أولى أن يحرم من فقه القرآن بالغًا ما بلغ تمكنه من لغة القرآن وعلوم القرآن وسائر الأدوات، وهو ما نبه الله تعالى عليه بقوله: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ۞ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾(الإسراء:٤٥-٤٦).

الاستبصار ثمرة الإيمان بالآخرة

إن الإيمان باليوم الآخر، يعطي المؤمن قوة إبصار للأمور، لأنه به يكون مؤهلاً للانتفاع بالقرآن من حيث هو نور الله المنزل: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾(النساء:١٧٤)؛ فبالقرآن يجعل الله له نورًا: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾(الحديد:٩).

فهـو ذو بصيـرة يـرى بنور القـرآن الأمـور والأعمال كما هي؛ يرى السـوء سـوء والحسـنة حسـنة والحق حقًّا والباطل باطـلاً، لا يلتبـس عليه شـيء مـن ذلك فهـو ﴿عَلَى بَيِّنَـةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾. ويقابله الذي لا يؤمن بالآخرة، فهو بحرمانه نفسـه من نـور القرآن لا يرى الأمور كما هي، بل وعيه ملتبس وتصوره مقلوب؛ السيئ عنده حسن والحسن سيء كما قال الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُـوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾(محمد:١٤). وقـد نص الله تعالى على أن السـبب في حرمانـه مـن البصيـرة هو كفره بالآخـرة فقـال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾(النمل:٤).

الحصانة الدينية ثمرة الإيمان بالآخرة

قـال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَـدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقًا مِـنَ الْمُؤْمِنِيـنَ ۞ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُـلْطَانٍ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِـنُ بِالآخِـرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَـكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَـيْءٍ حَفِيظٌ﴾(سبأ:٢٠-٢١). تشير الآيتان إلى أن سلطان الشيطان ليس على المؤمن بالآخرة، وإنما هو على من يشك فيها.

أمـا المؤمن بالآخـرة، فبأهليته للاهتداء بكلام الله يجد فيه إذا تـلاه أو اسـتمع له أو تدبـره الذكرى، كما يجـد فيه البيان لأسـباب الاستقامة والثبات وأسباب الزيغ والارتداد، والبيان لمصايد عدوه الشـيطان ومكايده، ويعلم أن الله إذا أمر بشـيء أو نهـى عنـه فهـو الحق، وأن كل مـا يخالفه ممـا يخطر بباله أو تهم به نفسـه إنما هو من الشـيطان، إذ دلالة كون الخاطرة وسوسـة شـيطانية أن الشـيطان ينهى عما يأمر الله به ويأمر بما ينهـى الله عنـه، ويزين سـوء العمـل ويكره حسـنه ويعد بضد مـا يعـد بـه الله تعالـى. ومن ثـم فـإن الشـيطان لا يتمكن من قلبـه على الـدوام، فإن إيمانـه وتواصله مع القـرآن، يجعلان وقوعـه فـي شـراك الشـيطان قليـلاً ومؤقتًـا كما قـال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِيـنَ اتَّقَـوْا إِذَا مَسَّـهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّـيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾(الأعراف:٢٠١). ويؤكده أن نفي سـلطان الشـيطان على المؤمن، جاء في سياق الحديث عن قراءة القرآن الكريم المقرونة بالاستعاذة من الشيطان الرجيم كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْـتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّـيْطَانِ الرَّجِيمِ ۞ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾(النحل:٩٨-٩٩).

لكنه كلما قلت صلته بكلام الله كثر اتباعه للشـيطان، وقد يتذكر فيرجع إلى الله وقد لا يتذكر فيتمادى في عصيانه لله حتى يزيغ فيزيغ الله قلبه وينسـى لقاء ربه، فيسـتحوذ الشيطان عليه ويقـوده من باب الجهل أو الهوى، فبالجهل يعمل ما لا يعلم أن الله لا يحبـه، أو يتورط فـي تغيير دينه بالزيادة أو النقصان، كما أنه بالهوى يترك العمل بالحق مع علمه به، وقد يرجح ما تحبه نفسـه على ما يحبه ربه في أي شـيء فينحرف تفريطًا أو إفراطًا، وقد يتخذ دينه وسيلة لنيل مآربه، وقد يستعمل منصبه لأغراضه الخاصة وإن بالتحريش بين الناس وتفريق جماعتهم وهضم حقوقهم.

وأمـا الـذي يشـك فـي الآخـرة، ففيـه قابليـة الاسـتجابة للشـيطان، والشـيطان متمكن منه ومستحوذ عليه لأنه بقي بلا حصانـة، والحصانـة إنمـا هي في كلام الله، وقـد قضى الله أن يحـرم منها مـن لا يؤمن بالآخرة كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُـرْآنَ جَعَلْنَـا بَيْنَـكَ وَبَيْنَ الَّذِيـنَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِـرَةِ حِجَابًا مَسْـتُورًا ۞ وَجَعَلْنَا عَلَـى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُـوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾(الإسراء:٤٥-٤٦).

فهـو بهـذا، قد عرض قلبه لتشـرب إلقاءات الشـيطان من بـاب اتباعه للهوى واسـتعداده لاعتناق مـا يبدو له من الفكر، وتضخـم رغبته فـي القيام بكل ما يحلو له من الفعل وحرصه علـى التمتـع بالدنيا بأكبر قدر ممكن وبأسـرع ما يمكن، وقد ينجـر إلـى جلب المنافع لنفسـه بإضـرار غيره، وإلـى حماية مصالحـه بأي وسـيلة كانت ما دامت الحيـاة الدنيا هي الحياة في نظره لا حياة بعدها ولا حسـاب ولا جزاء، فيكون ألعوبة حقيقية في يد الشـيطان أينما يوجهه يتجه، ويضله ويسـتعمله فـي الإثم والعدوان معا، وقد يكون في نفسـه مسـالمًا فيضله ويوقعه في الإثم دون العدوان.

الإرادة ثمرة الإيمان بالآخرة

إن الإيمان بالآخرة، ينشـيء في القلب الإرادة التي تدفع إلى فعـل مـا ينبغـي فعلـه، واجتناب ما ينبغـي اجتنابه. ينشـئ فيه الطاقـة الروحية المنتجة للمصالح، والرقابة الذاتية المانعة من المفاسد.

• الإيمـان بالآخـرة دافـع إلى الخير، ويـدل على ذلك أن القرآن سـاقه على سـبيل التعليـل لأفعال العباد وعلى سـبيل الترغيب في فعل الطاعات والترهيب من تركها، ومن إشارات القرآن في ذلك:

أن الاسـتجابة لله تتحقق بدافع الإيمان بالله و اليوم الآخر

كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾(الأنفال:٢٤).

وأن الإيمان بالآخرة يدفع إلى أكثر من الاستجابة، يدفع إلى الاستزادة من الخيرات والمسارعة إليها والتقرب بالنوافل قال الله تعالى: ﴿أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾(الزمر:٩).

وأن الإيمان دافع إلى المحافظة على الصلاة التي هي عمود الدين، وإلى عمارة المسجد التي هي عمود العمران قال الله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ۞ رِجَالٌ لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ ۞ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(النور:٣٦-٣٨).

وأن هذا الإيمان يرسخ في حياة المؤمن دافع التأسي برسول الله ﷺ كما قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾(الأحزاب:٢١).

وأن الإيمان بالآخرة، ينشيء في سلوك المؤمنين الحرص على الاحتكام إلى الكتاب والسنة لرفع النزاع: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾(النساء:٥٩).

وأنه دافع إلى إقامة الأخلاق وصيانتها، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ ۞ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلاَ يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ۞ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾(الرعد:١٩-٢١).

وأنه دافع إلى نصرة دين الله: ﴿لاَ يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ۞ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾(التوبة:٤٤-٤٥).

إن الإيمان باليوم الآخر، يعطي المؤمن قوة إبصار للأمور، لأنه به يكون مؤهلاً للانتفاع بالقرآن من حيث هو نور الله المنزل. فهو ذو بصيرة يرى بنور القرآن الأمور والأعمال كما هي؛ يرى السوء سوء والحسنة حسنة، والحق حقًّا والباطل باطلاً، لا يلتبس عليه شيء من ذلك فهو ﴿عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾

وأن الإيمان بدقة الحساب، دافع إلى الاعتناء بجزئيات الخير وكلياته معًا: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۞ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾(الزلزلة:٧-٨).

وأن هذا الإيمان يحمل الفرد على لزوم الاستقامة وإن زاغت جماعته وضل قومه، بناء على أن الحساب يوم القيامة سيكون مع كل فرد على حدة كما قال تعالى: ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾(مريم:٩٥)، وقال: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾(الإسراء:١٤).

وأنه دافع إلى التخلق بالشكر والصبر تجاه القدر خيره وشره: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾(الأنبياء:٣٥)، وقال: ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ۞ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾(البقرة:١٥٥-١٥٦).

• الإيمان باليوم الآخر، وازع من الشر كما هو دافع إلى الخير، ويدل على ذلك ما في القرآن من إشارات إلى أنه في حال وجوده يمنع من شرور كثيرة، وأنه في حال غيابه يتسبب في مفاسد عظيمة؛ من قبيل الطغيان والإفساد في الأرض، واختلاس الأموال العامة، والاتباع الأعمى، والبخل، والمضارة بين الزوجين.

ومن الإشارات القرآنية في ذلك، أنه يزع المؤمن من الطغيان كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾(يونس:١١)، وقوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى ۞ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۞ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ۞ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى)(النازعات:٤٠). هذا التقابل بين الخصلتين في الآية الثانية قرينة سياقية تدل على أن المقابل لخوف مقام الله هو الطغيان، وأن الذي يخاف مقام ربه لا يطغى.

وأن هذا الإيمان يزع المؤمن من العلو في الأرض والإفساد فيها، قال تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾(القصص:٨٣).

وأنه يزع المؤمنين من الفساد التجاري: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ

﴿الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۞ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۞ أَلاَ يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ۞ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۞ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(المطففين:١-٦).

وأنه يزع من موالاة أعداء الله، قال سبحانه: ﴿لاَ تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾(المجادلة:٢٢).

وأنه يزع من الغلول الذي هو اختلاس المال العام: ﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾(آل عمران:١٦١).

وأنه يزع من الاتباع الأعمى: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ للهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ۞ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ ۞ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾(البقرة:١٦٥-١٦٧)، وقال أيضًا : ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾(الصافات:٣٣).

وأنه يزع المؤمن من استعمال جوارحه وحواسه فيما لم تخلق من أجله، لأنها ستشهد عليه يوم القيامة في حال أدخل عليها الضرر وغذاها بالخبائث وفي حال وظفها في الإضرار بغيره في دينه أو دنياه. فجسمه كله ملك لله، وهو أمانة مودعة عنده، ورقيب لا يفارقه في أي حال، وواجبه أن يحفظه وأن يحذره، وفي هذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاَتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۞ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۞ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾(النور:٢٣-٢٥).

هذا الإيمان من حيث هو قوة نفسية مثمرة للمعروف، ووازع ديني مانع من المنكر، سمّاه القرآن الكريم: "خوف مقام الله"، أي خوف حلول غضبه في الدنيا والآخرة. وقد جعله أصل كل صلاح وتقوى، ومفتاح كل خير وبر، بدليل أن الله تعالى في سور عدة من كتابه، جعل استحقاق دخول الجنة راجعًا إلى اكتساب خصال صالحة كثيرة كلها مصالح يحتاج إليها الفرد والمجتمع، ثم أرجع في سورة النازعات اكتساب تلك الخصال إلى سببين هما: خوف مقام الله، ونهي النفس عن الهوى كما قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ۞ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾(النازعات:٤٠-٤١)، ثم أرجع في سورة الرحمان السببين إلى أولهما فقال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾(الرحمن:٤٦)؛ فأكد أن خوف مقام الله هو الأصل، وأنه هو الذي يجعل المؤمن ناهيًا لنفسه عن الهوى، أي عن حب الدنيا وإيثارها على الآخرة. فإنه يمنع من الامتثال لأمر الله أو يؤخره، فنهي المؤمن نفسه عن الهوى هو ترجيحه طاعة الله ورضوانه على اتباع هواه وحمله نفسه على لزوم طاعته وعدم الرجوع عنها، وعندما يفعل المؤمن ذلك، يكتسب صفات المؤمنين المتقين التي ذكر الله أنهم يستحقون بها دخول الجنة. فيكون الإيمان باليوم الآخر، أو خوف مقام الله، هو السبب في كل تحول يحبه الله ويرضاه نص عليه في كتابه أو نطق به رسوله ﷺ.

إن السر في هذا الإيمان إذن، هو ثمراته تلك التي خلاصتها إصلاح الإنسان من داخله ليصلح في نفسه ويصبح للناس سبب نفع ومصدر سلام. فإنه لا صلاح لكسب الإنسان قبل صلاح قلبه، ولا يصلح القلب والكسب معًا إلا بالإيمان بيوم الحساب، ولا يكون الإنسان مباركًا إلا به.

إن المسلمين يوفقون تمام التوفيق عندما يعاملون الإيمان باليوم الآخر بنحو ما عامله القرآن، وينزلونه المنزلة التي أنزله، ويوظفونه التوظيف الذي وظفه.

إنهم يوفقون عندما يجعلونه روحًا لكل برامجهم الهادفة إلى بناء الإنسان كما جعله الله روح كل كلامه المنزل منذ قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾(العلق:٨) وهي من أوائل ما نزل، إلى قوله: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ﴾(البقرة:٢٨١) وهي من أواخر ما نزل، ويخرجون هذا الإيمان من حالة كونه طرفًا من علم عقيم يورث ويلقن لطلبة التعليم الديني، ومجرد اختصاص يمارسه الوعاظ بالمساجد، ومجرد درس من دروس التربية الإسلامية يلقى على التلاميذ في مرحلة ثم ينسى في سائر المراحل.

ويوفقون عندما يتخذونه في الإصلاح منطلقًا ومعيارًا، ويأتمنون على مصالحهم كل "حفيظ عليم" ممن تأهل بالعلم والخبرة، ولاحت عليه أمارات هذا الإيمان الفعال. ■

(*) أستاذ في جامعة محمد الأول، وجامعة ابن طفيل / المغرب.

أ.د. عماد الدين خليل*

إسلامية الأدب



أ.د. عماد الدين خليل

ظهرت الدعوة إلى الأدب الإسلامي في العصر الحديث، ووقف منها المثقفون العرب والمسلمون مواقف متعددة متباينة، فمنهم من احتفى بهذا المصطلح الجديد احتفاءً جمًّا، وتحمس له غاية الحماس دون أن يكون عنده مع ذلك الحماس رؤية متكاملة تقوم على أسس واضحة وتتبنى تصورًا شاملاً لهذا المصطلح، ومنهم من رفضه بدعوى أن الأدب العربي كله -منذ البعثة

النبوية وإلى اليوم- أدب إسلامي يُنتجه في معظمه مسلمون، فلا داعي إذن لهذا التمييز. ولكن طائفةً من شداة الأدب ونقاده نظرت لهذا المصطلح نظرة موضوعية هادئة، تقوم على أسس واضحة ومعايير مستقيمة، منهم ضيف حلقتنا لهذا العدد، الأديب الإسلامي الكبير الأستاذ الدكتور عماد الدين خليل، ليعرّفنا كيفية تحقق الإسلامية في الأدب؟ ويزيل اللثام عن الشبهات التي ما زالت تثار حول الأدب الإسلامي.

س: هلاّ حدثتمونا في البدء عن الأدب الإسلامي، وكيفية تحققّه؟(**)

ج: ابتداءً يتحتّم التأكيد على أن أي حديث عن المضمون الفكري للأدب الإسلامي المعاصر، يجب ألا يغفل -لحظة- عن التقنيات الفنية الملتحمة بالمضمون، والحاملة لهمومه، والقديرة -وظيفيًا- على توصيله إلى المتلقي بأكبر قدر من "التأثير".

تلك هي مهمة الأدب على إطلاقه وعبر أجناسه كافة، وأي اختلال في التناسب بين الشكل والمضمون، سيميل بالميزان صوب المضمونية التي تضعف العمل الإبداعي، وربما تخرج به عن أن يكون أدبًا.

فإذا ما عرّفنا الأدب الإسلامي -بمفاهيمه المعاصرة- بأنه "تعبير جمالي مؤثّر بالكلمة عن التصور الإسلامي للوجود"، وجدنا أنفسنا أمام العنصرين الأساسيين للعمل الأدبي وهما "التصوّر" و"الجمال".

هذه المسألة لا يكاد يختلف فيها اثنان في العالم كله، وإن كان بعض أدبائنا ونقادنا الإسلاميين لا يزالون يرمون بثقلهم صوب المضمونية، ويمارسون نوعًا من التهميش -بدرجة أو أخرى- للقيم الجمالية التي يتحتم أن تلتحم بالمضمون.

فإذا ما جئنا إلى المضمون الفكري، وجدنا المذاهب الأدبية كافة -فيما عدا البرناسية بطبيعة الحال- تحمل وتبشّر بمنظومة من القيم التصورية كل وفق الشبكة التي تؤسس لذلك المذهب. وإذا كان الأمر غائمًا بعض الشيء في الكلاسيكية والكلاسيكية الجديدة، وربما الرومانسية، فإنه واضح تمامًا في الواقعية والواقعية الاشتراكية والرمزية والوجودية، والمذاهب التالية كالسريالية والحبشية (الطليعية)، وتيارات الحداثة المتدفقة التي يضرب بعضها بعضًا ولا يزال.

في حالة كهذه، ألا يحق للأدب الإسلامي أن ينطوي على مضمونه الفكري بما أنه ينبثق عن العقيدة الأوسع فضاءً، والأغنى خبرات، والأغزر مفردات وعطاءً؟ باعتبارها إضاءة متفردة يلتقي فيها الوحي بالوجود، وتتلقى تعاليمها من الله سبحانه الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وتفتح جناحيها على الإنسان والعالم والكون والمصير؟

إن الخبرة الإسلامية في أعمق مجاريها الإيمانية خفاءً، وأكثر تجلياتها الفكرية إشراقًا، تضع بين يدي الأديب والفنان ثروة هائلة من المفردات، وشبكة عريضة من التجارب والرؤى والتأسيسات التي يمكن للأديب أن يستمد منها في هذا الجنس الأدبي أو ذاك.

في ضوء ذلك كله، يبدو "التأصيل الإسلامي للأدب" التزامًا مبدعًا بمنظومة الخبرات والقيم الفكرية للإسلام، وتقديمها للناس بأشد وتائر القدرة على التأثير، يوازيها سعي مرسوم لهدم القيم الوضعية المضادة في الفكر والأدب والحياة.

ولكن، مرة ثانية وثالثة، بما أن الإبداع الأدبي في أجناسه كافة ينطوي على بعد آخر يلتحم بالبعد الفكري، ويمكنه من التأثير في المتلقي، وذلك هو منظومة القيم الجمالية، فإن التأصيل الإسلامي للأدب يتحتم ألا يغفل عن إيلاء الاهتمام البالغ بهذا الجانب، وأن يبحث ما وسعه الجهد عن بدائل إسلامية للقيم الفنية الشائعة في الآداب العالمية، رغم إقرارنا -مسبقًا- بأن معظم هذه القيم يحمل وجهًا محايدًا يمكن توظيفه في هذا المذهب أو ذاك.

ومع المضمون الفكري والقيم الجمالية، لابد للأدب الإسلامي -وهو يسعى إلى المزيد من التأصيل- من أن يشكل منهجه المتميز في النقد والدراسة الأدبية، أسوة بما فعلته وتفعله جل المذاهب والمدارس النقدية في العالم.

س: يعترض بعض الأدباء على مصطلح الأدب الإسلامي بقوله: إننا بهذه التسمية نلغي الأدب العربي، ويرى أن هذا جناية على الأدب العربي الذي أعطى على مدى قرون طويلة ولا يزال... فكيف نجيبهم؟

ج: ليس ثمة مشكلة على الإطلاق، فالأدب العربي، وبخاصة المعاصر، ليس سواء... هنالك الأدب العربي الأصيل الذي يتوافق مع الأدب الإسلامي ويرفده ويصبح جزءًا منه، وهنالك الأدب العربي المسخ الذي اندفع وراء

إغـواء "الآخـر" الـذي تختلـف رؤيتـه عـن رؤيتنـا، ربمـا بزاوية مائـة وثمانين درجة... وقد يصل به الأمر إلى حافات العبثية والإباحية والفجور... هذه البقع المرضيـة الهجينـة فـي خارطـة الأدب العربـي المعاصـر، هـي التـي يرفضهـا الأدب الإسـلامي... أما الأدب العربي فـي عمقه التراثي فهـو في معظمه أدب الإسلام نفسه.

س: ألا يحول الأدب الإسلامي بين الأديـــب وبين الإبداع الفني الذي يحقق المتعة للقارئ؟

ج: هـذا يعتمـد على قـدرة الأديب نفسـه، وخبرتـه، ومهارتـه، وفضائـه المعرفـي، وقـوة خياله، وثقافته الأدبية تنظيـرًا ونقدًا وإبداعًا، بغـض النظـر عن المذهـب الأدبي الذي ينتمـي إليه. فهنالك عبـر المذاهـب الأدبية كافة نتاج ضعيف لا يسـتحق أن يقرأ، لأنه لا ينطوي على الحد الأدنى من الشـروط الإبداعية، ولا يحقق المتعة للقارئ.

هل قـرأت أعمـال الأديبيـن الإسـلاميين الكبيرين: علي أحمـد باكثيـر ونجيـب الكيلانـي؟ إن روايتـيْ "وا إسـلاماه" و"الثائـر الأحمـر" لأولهمـا علـى سـبيل المثـال، و"عمالقـة الشـمال" و"ليالي تركسـتان" لثانيهما على سبيل المثال أيضاً، تمثل قممًا روائية على المسـتويين الإبداعي والإمتاعي، ولقد أدهشـت الآلاف من القـرّاء.. وهناك -غيـر هذين- جيل من الروائييـن الإسـلاميين المعاصريـن الذيـن قدمـوا الكثير في السياق نفسه.

وقد سبق وأن قلت في مقدمة مجموعتي القصصية "كلمة الله" مـا نصّه "في رأيـي أن احترام مطالب القصة القصيرة كما صممها المهندسـون الكبار في الغرب والشـرق وعلى رأسها العقدة، يعد ضرورة من الضرورات، ليس فقط لتجاوز النزعة الهدميـة التـي تنطوي عليها بعض تيـارات الحداثة الإبداعية، في سـعيها المحموم لتدميـر الثوابت الموضوعيـة والجمالية معًـا حيث يصير التغيير هدفًا بحد ذاته، وإنما لاحترام وتقدير حاجة القارئ الذهنية والنفسية إلى المتعة، والمشاركة والتوق إلـى الاكتشـاف، والتوقـع والعثـور في نهايـة الأمر على الجواب. وأخشـى ما يخشاه المرء وهو يبحر في تيار الحداثة بمسـتوياتها الثلاثـة؛ التنظيـر والنقـد والإبـداع، أن يجـد نفسـه قبالة حالات لا يمكـن التسـليم بهـا بسـهولة: إلغـاء مبدأ المتعة الفنيـة في العمل الإبداعي، وتحويـل النشـاط النقـدي إلـى جهـد مختبري قد يضع الأسـلاك الشائكة بين المبدع والمتلقي أو بين النص والقارئ، ويصـرف الأخيـر عـن اسـتدعاء الناقد لكي يعينه على التعامل مع النص، ليس كمعادلـة رياضيـة أو كشـف كيمياوي، وإنمـا كجهـد إبداعـي يسـتعصي علـى الجدولة والترقيم".

إن الخبرة الإسلامية في أعمق مجاريهـا الإيمانية خفاءً، وأكثر تجلياتها الفكرية إشراقًا، تضع بـين يـدي الأديـب والفنـان ثـروة هائلة مـن المفـردات، وشبكة عريضة من التجارب والـرؤى والتأسيسـات التي يمكن للأديب أن يستمد منها في هذا الجنس الأدبي أو ذاك.

فكيف جئنا إلى الشعر الذي قدم فيه الإسلاميون سيلاً من القصائد القمم بكل المعايير النقدية؟

س: يقول المعارضون لمصطلح الأدب الإســلامي، أن هذا المصطلح يجعل الأدب واضحًا ومباشــرًا في خطابه، والوضوح والمباشرة عدوان لَدودان لفنية النص الإبداعي، فكيف نتجاوز ذلك؟

ج: يمكن أن تجد بغيتك في جوابي على السـؤال الأول، فالوضوح والمباشرة عدوان لفنية النص الأدبي ليس في دائرة الأدب الإسـلامي وحـده، وإنمـا في المذاهب كافـة. فها هنا أيضًا تجد هذا الداء -إذا صحّت التسـمية- يخترق الكثير من الأعمـال... إذ لابد من أجل التحقق بالشـروط الفنية للأداء، مـن الانزيـاح -بدرجـة أو أخرى- عـن الدلالات المباشـرة للكلمـات، وإلا فهي المعاني المطروحـة على قارعة الطريق كما يقول الجاحظ.

ولكني أحب أن أسأل هؤلاء المعترضين: هل أتيح لهم أن يقرؤوا جلّ الأعمال الأدبية الإسلامية المعاصرة في أجناسها كافـة إن لم أقل كلها، لكي يكون حكمهم عليها حكمًا علميًّا صائبًا؟!

إنهـا مقولة لا تقوم على اسـتقراء شـامل، وتطلـق تعميمًا خاطئًا، والتعميم -كما نعرف جميعًا- خطأ علمي.

إنهم يتناقلون المقولة الخاطئة بعضهم عن بعض، ويجترونها اجترارًا دون أن يكلفوا أنفسهم عناء قراءة هذا الذي تفيض به مكتبة الأدب الإسلامي المعاصر في أجناسه كافة، والذي ينطوي بالتأكيد -وأسوة بغيره من الآداب- على المباشر والواضح، ولكنه يتضمن -في الوقت نفسه- الكثير الكثير من الأعمال التي استكملت شروطها الفنية بكل المعايير النقدية.

س: عندما نقول في ظل التصور الإسلامي للأدب، "هذا أديب غير إسلامي"، ألا يجرّنا هذا إلى تكفير الأديب المسلم الذي لا يدخل في دائرة هذا التصور؟

ج: ثمة فارق كبير بين عبارة "أديب غير إسلامي" و"أديب غير مسلم".

لم يقل أحد بالثانية ، أما الأولى فتعني أنه يصدر في معطياته الأدبية تنظيرًا ودراسة ونقدًا وإبداعًا عن منطلقات غير إسلامية، ولكنه يظل مع ذلك مسلمًا على الأقل بالمفهوم الجغرافي.

س: يثير بعض معارضي مصطلح "الأدب الإسلامي" شبهة البدعة في هذا المصطلح، فيقولون إنه بدعة معاصرة لم يقل بها أحد من سلف هذه الأمة، فهل نحن أحرص على الإسلام من أولئك؟

ج: لسنا في حلبة مصارعة، لكي يكون أحدنا أحرص من الآخر، فالكل أجدادًا وآباءً وأبناء، هم تلامذة المدرسة الإسلامية التي خرجت كعب بن زهير، وحسان بن ثابت، وجلال الدين الرومي، وحافظ، وسعدي، وعلي أحمد باكثير، والرافعي، والكيلاني، والأميري... التواصل قائم، فما دامت الكلمة المبدعة تحمل همًّا إسلاميًّا، وتبشر بخلاص إسلامي، فإنها تندرج في سياق الأدب الإسلامي معاصرًا كان أم تراثيًّا، فليس ثمة انقطاع بين الأجيال. ولقد عالجتُ هذه المسألة بتفصيل واستفاضة في بحث يحمل عنوان "الأدب الإسلامي وإشكالية العمق التراثي"، نشر قبل سنوات في مجلة رابطة الأدب الإسلامي العالمية.

إذا كانت خدمة هذا الدين بقوة الكلمة "بدعة"، فهي -إذن- البدعة الحسنة التي نرجو أن يكون لنا أجرها عند الله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ۞ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾(إبراهيم:٢٤-٢٥).

فإذا أردنا أن يكون لهذه "الكلمة" قدرتها على التأثير، فإن علينا أن نستدعي كل الخبرات التنظيرية والنقدية والإبداعية في ساحات العالم المعاصرة، لكي ننتقي منها ما يمنح أدبنا سويته المطلوبة وينقله إلى مستوى العالمية.

إن العزلة عما يطلع في الغرب عمل انتحاري، كما أن تقبّله على عواهنه انتحار هو الآخر... ولابد أن نكون حذرين من الاثنين.

س: يدعى أن النظام العالمي الجديد ينادي بثقافة عالمية موحدة، لا فواصل بين العقول والأفكار فيها، فالناس جميعًا ينتمون إلى ثقافة واحدة تقوم على فكرة الإنسانية التي لا تعرف الحدود... ماذا نقول في ذلك؟

ج: لا أقول إلا ما قاله كتاب الله: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۞ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾(هود:١١٨-١١٩)، أي خلقهم للتغاير والتدافع والاختلاف: ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ﴾(البقرة:٢٥١).

لقد حاولت الشيوعية يومًا الوصول إلى حالة "الثقافة الواحدة" وإلغاء التغاير والإجهاز على خصوصيات الأمم والشعوب، فأخفقت وخرجت من التاريخ. وفي الطرف الآخر -الطرف الغربي الرأسمالي- حاول الفيلسوف الأمريكي "فرنسيس فوكوياما" في "نهاية التاريخ"، أن يلعب الدور نفسه وأن يصبح عرّاب الثقافة الليبرالية الموحدة التي تمضي لكي تغطي العالم كله، ولكنه ما لبث أن رجع عن فكرته بعد سنوات فحسب من إصداره كتابه المذكور، عاد لكي يؤكد مبدأ التغاير ويعترف بالخصوصيات.

ولكن هذا كله لا يمنع من حوار الإنسان مع الإنسان، ومن لقاء الإنسان بالإنسان على مدى العالم كله، ومن إيجاد جزر مشتركة لتعايش مشترك... ولو رجعنا إلى تاريخنا وألقينا عليه نظرة طائر، فإننا سنرى تنفيذًا مدهشًا لفكرة أخوة الإنسان للإنسان هذه... وما أحرى الأدب الإسلامي بنزعته العالمية الموازية لتشبثه بخصوصياته، أن تعكس هذا الهمّ الكبير... هذا اللقاء المشترك تحت سماء الله الكبيرة جلّ في علاه. ■

(*) كلية الآداب، جامعة الموصل / العراق.

(**) أجرى الحوار الدكتور محمد إسماعيل المشهداني.

أ.د. عرفان يلماز*



الخفافيش
الرادارات الطائرة

لعل البعض منكم لا يحبّني ولا يريد حتى رؤيتي... وماذا أفعل؟ وهل ستسير الأمور دائمًا حسب رغباتكم ومطالبكم أنتم البشر؟ فمالكُنا جميعًا هو مَن خلقني حيًّا بين الأحياء. ما دام قد خلقني ووظفني بين خلقه بأعمال معيَّنة، فليس لكم إلا أن تنصتوا إليّ وتستمعوا. لعلّي -بذلك- أبرّئ نفسي عن كثيرٍ من الشائعات التي تدور حولي، وأصحح بالتالي العديد من الأوهام الخاطئة عن معشري وبنات جنسي. ولكني أعلم أن هذا الأمر لن يكون سهلاً، لأن معظمكم يخاف منّا نحن الخفافيش، ولا يريد حتى الاستماع إلينا، وربما السبب في ذلك أنكم ذكرتُمونا في أدبياتكم بأمثلة سيئة فقلتم: "ينظر كالخفافيش"، "يتخفّى في الظلام كالخفافيش"، "الخفافيش مصاصو الدماء"... وغيرها من الأمثلة والأقوال.

وفي قصص الأطفال أو أفلام الكرتون، تجعلون من الخفاش رمزًا لمن يحب العيش في الظلام والأماكن التي تُرتكَب فيها كل أعمال الشر والفساد... وعلى الرغم من براءتنا من كل ذلك، فإنكم تعرّفوننا إلى أولادكم بهذه الصورة، وهذا يحزننا كثيرًا ولا يمكن قبوله أبدًا. وعلى الرغم من أنواعنا العديدة التي تتجاوز الألف، فإن الأنواع التي تعيش على مصّ دماءِ الحيوانات (مصاص الدماء) لا تشكل إلا ثلاثة أنواع، ولم يُسمع عنها يومًا أنها هاجمت البشر. وبالتالي فإنها حيوانات صغيرة يبلغ حجمها (٨-٩) سم، ووزنها (٤٠-٥٠) غرامًا، كما أنها لا تمتص دماء الحيوانات إلى درجة القتل... والحقيقة أن فقدان الدم لا يشكل خطرًا كبيرًا على الحيوانات الملدوغة، إنما الخطر يكمن في الأمراض التي تنتقل عبر دماء هذه المخلوقات الصغيرة وعلى رأسها داء الكلب. فمن الظلم اتهامنا جميعًا بسبب هذه الأنواع الثلاثة فقط التي تعيش على مص الدماء. ولن يكفي الوقت لأن أسرد كل الفوائد التي أكون سببها في هذه الكائنات.

فكما أن النحل وبعض الحشرات تقوم بتنفيذ أعمال مهمة في تلقيح النباتات، فكذلك تقوم بعض أنواعنا بعملية نقل اللقاح من زهرة لأخرى بين الأشجار المثمرة أثناء التقوّت. هذا وقد يقوم المزارعون وأصحاب الأراضي الشجرية المثمرة بهذه العملية من أجل التلقيح بين الأشجار، تمامًا كما نفعل نحن. وبعض أنواعنا تقتات على الفئران والضفادع والحيّات، لتمنع تكاثرها المفرط، ومن ثم لتحافظ على التوازن البيئي. نأكل أعدادًا هائلةً من الحشرات، فبذلك نسهّل عليكم مكافحة جميع أنواع الحشرات، وبالتالي نخلّصكم من إنفاق ملايين الدولارات على المبيدات السامة التي تؤدي حتمًا إلى التلوث البيئي واستنزاف طبقة الأوزون. إذن لم



يخلقنا ربنا عبثًا ولم يتركنا سدى، إنما هدانا إلى ذلك بحكمة منـه وفضـل... وإنْ كنتـم تجهلون ذلـك، فهـذا لا يدعو إلى تعييرنا ونبذنا بين المخلوقات وإلى اعتبارنا أعداءً لنبي البشر؟!

تتميز إناثنا الأمهاتُ بين الحيوانات، بحبها الجمّ لصغارها وشـفقتها الشـديدة عليها، تمامًا مثلما تحبـون أنتم صغاركم وتشـفقون عليهـم. كمـا أننا نتعـاون على العنايـة بالخفافيش الصغـار التـي تموت أمهاتهـا فنقوم برعايتها مـع صغارنا ولا نتركهـا للبـؤس والشـقاء. ولعل هـذا أكبر دليل على شـفقتنا ورحمتنـا تجـاه صغارنـا نحن الخفافيـش، التي تمثّل الشـؤم والبؤس في نظركم، بينما أنتم البشر، قلّما تعبأون بأولاد غيركم وترعونهم إذا ما فقدوا أمهاتهم أو آباءهم، ليس هذا فحسب، بـل ويتخلى بعضكم عـن ولده ويلقيه على أبواب المسـاجد دون رحمـة منـه ولا شـفقة. أخبرونـي الآن، أيّ الفريقين منّا أشـد قبحًـا وأكثر بشـاعة، نحـن الخفافيـش أم أنتم البشـر؟!

عالمٌ مقلوب

إننـا نحـن الخفافيش، الحيوانـات الوحيدات التـي تتعلق من قدميها مقلوبة برأسـها لتسـتريح أو لتنام. ولكن ننصحكم ألا تقلّدونـا، وإلا تدفّقتْ دماؤكـم على دماغكم، وأصبتم بخلل فـي توازنكم، بينما نحن نمضي حياتنا كلها ناظرين إلى الدنيا بالمقلوب. وعندما نقف وقفتنا الطبيعية العكسية، تُقفل الأوتار المتصلة بمخالبنا الشبيهة بالخطافات أوتوماتيكيًّا، الأمر الذي يمكّننا من عدم السقوط على الأرض، لا سيما أثناء النوم.

الثدييات الطائرة

مـا إن نذكـر الطيـران حتـى يتبـادر إلـى أذهاننـا الطيـور ثـم الحشـرات الطائـرة المجنحة. وبالتالي فهنـاك حيوانات تطير -وإنْ لـم تحلـق في الهـواء كالطيـور- بواسـطة الزعانف أو جلد الصدر أو الوترة من البشـرة التي تشـكل ما يشبه المظلة والتي تساعد على المروق عبر الهواء من العالي إلى الأسفل؛ كالأسـماك الطائـرة، والضفـادع الطائرة، والسـنجاب الطائر. ولكننـا نحـن الخفافيـش ننفـرد بيـن الفقريـات بقدرتنا على الطيـران الناشـط أو طيران الرفرفة، إذْ خُلِقنـا على هيأةٍ تلائم طاقة الهواء الرافعة وخصائصه الفيزيائية؛ فلدينا أغشـية رقيقة من الجلد تغطي عظام ساعِدنا وأصابعنا الطويلة الأمامية تمتد نحـو الـوراء لتحيـط الطرفين الخلفييـن، وقد قمتـم في فيلم "الرجـل الخفاش" بتمثيل هذا الغشـاء الـذي نطير به، بالعباءة السـوداء، ثم يوجد في عقبي عَظْمٌ منفردٌ يدعم حافةَ الغشـاء المرتخيـة، وهـذا يمكّنني مـن المناورة السـريعة عند تحريك أصابعي وسـاعدَيَّ ورجلَيَّ للطيران. لقـد خلق العليم الخبير ﷻ للطيور أرياشـها، وللحشرات أجنحتها من مادة الكيتين، وخلـق لنـا هذه العبـاءة من الجلد لنطيـر جميعًـا... ولو أراد لَأبـدع مخلوقـات تطير بآليات مختلفة متنوعـة لا تخطر ببال إنس ولا جان... وعليه فإننا نطير بسـرعة ٥٠ كم في السـاعة، ونصطاد فريستنا ونحن على هذه السرعة.

ذكـرتُ لكم سـابقًا أننا ننقسـم علـى العديد مـن الأنواع. فوَزْنُ أصغرنا يتراوح ما بين (١-٩) غم، وامتداد أجنحته يبلغ ١٦ سـم. كمـا يبلـغ وزن أكبرنا ١٣٠٠ غم، وامتـداد أجنحته يبلغ ١٧٠ سم.

أما عملية التكاثر لدينا، تمّت برمجته بشـكل دقيق حسب المواسـم وظروف التغذي، حيث نعيش أربعة مواسم للتكاثر فـي العام الواحد. وعلى الرغم من أن عقولنا قاصرةٌ عن هذه الحسـابات الدقيقة، فإن النطف تتجمع عند ذكورنا مدة سبعة شـهور، ويتزامن التصاق الجنين في الأرحام موسـمَ الشـتاء، ويتباطؤ نمو الجنين لتتأخر ولادته حتى الخروج من السـبات الشـتوي، ثم تتحقق الولادة في موسـم يلائم النمو والتطور. معظـم إناثنـا تنجب مولـودًا واحدًا فـي البطـن الواحد، ومن النـادر إنجابها توأمًا أو توائم (أربعة) في البطن الواحد. تنفرد الأمهـات فينـا برعايـة الصغار، ولا يسـاعدها الذكـور إلا في بعض أنواعنا النادرة.

يظـن الكثيـرون بأننـا من الحيوانـات ذات الدمـاء الحارة باعتبارنـا من الثدييات، لكننا لسـنا كذلك، حيث تصل حرارة أجسامنا إلى ٤١ درجة خلال الطيران، وتنخفض إلى درجتين

(٢) عنـد السـبات في الشـتاء. نجتمع في الكهـوف في أعداد كبيـرة -تبلـغ الملاييـن- عنـد الدخول في السـبات الشـتوي حتـى نتقي من برد الشـتاء، ونـنـام في مجموعـات كبيرة تبلغ عشـرين مليونًـا. تنخفـض ضربـات قلوبنـا أثناء السـبات من ٤٠٠ إلـى (١١-٢٥) ضربـة، ونقتات أثناء نومنا على أنسـجة الدهـون المكتنزة تحت جلودنا. نقسـم نحـن الخفافيش إلى أنواع كثيرة، إذ نشـكّل رُبُع الثدييـات تقريبًا. نحب العيش في الأماكن الهادئة الساكنة المظلمة، كأسقف المنازل المهجورة، والمغارات المظلمة، وتجاويف الأشـجار العملاقة، ومخازن المعامـل ومسـتودعاتها... ونمضـي معظـم حياتنـا فيهـا في صمت وسـكون. ينشـط معظمنا في الليـل، لذلك تم تصميم سـلوكنا بما يتناسـب مـع الظلام. يختبـئ صغارنا فـي النهار لحمايـة نفسـها مـن الأعـداء، أما الكبـار فلصيانة نفسـها من حـر النهار. ثم إن الفئران والضفـادع والزواحف المختبئة في جحورها نهارًا تخرج في الليل، فيتيسَّر بذلك طعامُنا، ويتحقق للطبيعـة توازنهـا. ولـولا خروجنا فـي الليـل واصطيادنا هذه الحيوانـات، لامتـلأت الأرض بها، وَفَقَـدَ العالم توازنه نتيجة تكاثرهـا المفـرط. وإذا اسـتثنينا قمـم الجبال العاليـة والجزر النائية في أعماق المحيطات، فإنَّ أعشاشَنا تنتشر في كل بقاع الأرض بمـا في ذلك القطب الشـمالي. أما سـبب تمكّننا من هذا الانتشـار هو قدرتنا على الطيران واعتمادنا على الأمواج الصوتية والذبذبات.

تنقسـم أنواعنا إلى مجموعتين أساسـيتين. أما المجموعة الأولى فهـي الخفافيش الكبيـرة (Megachiroptera)؛ ولأن هذه الخفافيـش تقتـات علـى الفاكهة في أغلب الأحيـان، فإنها لا تملـك قـدرة على تحديد الجهـة والمكان بالذبذبـة الصوتية، إنمـا تقضـي حاجاتهـا بأعينهـا، ما عدا نـوع خفـاش الفاكهة المصـري (Rousettus) الذي يسـتخدم ذبذباته الصوتية وراداره في تعيين الجهة والمكان.

وأمـا المجموعـة الأخـرى فهـي الخفافيـش الصغيـرة (Microchiroptera)؛ إنهـا تقتـات علـى الحشـرات والأسـماك والضفـادع والفئران وغيرها مـن الحيوانات الصغيرة، وتملك قـدرة عجيبة على إصـدار الأمواج الصوتية واسـتخدامها في تحديد الأماكن والأجسام كالرادارات.

خبراء الرادار

إن اسـتخدام الأمواج الصوتية في تحديد الأماكن والمسافات



عـن طريـق الصـدى (الإيكـو)، مـن أبـرز ميـزات الخفافيش الصغيـرة. وأول رادار أنجزتموه في عام ١٩٣٠ بعد جهودكم الجهيـدة وأبحاثكم المتواصلة، يظل بسـيطًا جـدًّا أمام الرادار الـذي وهبه لنـا خالقنا العظيـم، لأن الرادار الـذي صنعتموه، ثابت، وليس حساسًـا، ويقتصر على تمييز الأجسـام المقتربة منه فقط... بينما الرادار الذي أملكه أنا حساسٌ جدًّا، ويستطيع الوقـوف علـى كل حركةٍ فراشـةٍ تطير. وبالتالي فـإن راداري يحتـاج إلـى طاقـة كبيـرة، لذلـك لا أسـتخدمه وقـت الراحة وعنايتـي بالصغـار. ثم إني أُصدر أثناء الطيـران مع كل ضرْبةِ جناح موجةً صوتيةً طويلة منخفضة التردد لا تسمعها آذانكم.

نُصـدر الصـوت مـن حناجرنـا (Larynx)، وهنـاك نوع من الفراشات مُنحتْ موهبة الإحساس بالذبذبات التي تتراوح ما بين (٢٠-٦٠) كيلوهرتز، وعندما تحس هذه المخلوقات بهذه الذبذبات تسـارع في الهرب وتتمكّـن من الإفلات منّا، الأمر الذي يدفعنا إلى اسـتخدام طيف واسـع من الأمواج الصوتية للأغراض المختلفة. فنقوم بمسح الأهداف بحزمة الموجات الضيقة بذبذبات ثابتة، ونصدر الموجات بتردد يتراوح من ٢٠ إلى ١٠٠ كيلوهرتز خلال ٢,٥ ميلي ثانية لتحديد أماكنها، كما تقوم آذاننا الكبيرة الواسعة بمهمة اللواقط الهوائية.

إن خالقنـا الـذي يتجلى بعلمـه المحيط وقدرتـه المطلقة فـي كل الكائنات، جعـل بين أنماط حياتنا وأشـكال أجنحتنا وبيـن القدرات الديناميـة للهواء، توازنًا يمكن التعبير عنه بلغة الرياضيـات بأنه تناسـبٌ معقدٌ بديع. فهنـاك ارتباط رائع مثير وتَناسـبٌ بيـن وزن الجسـم ورقعة امتـداد الجنـاح أو تحمُّل الجناح وبين ذبذبات الصوت التي يصدرها الرادار، وما ندعوه بـ"تحمُّل الجناح"، له ارتباط وثيق بالمواطن التي تناسـب كل



نوع. ففـي الأجنحة الدقيقة والطويلة يكـون الاحتكاك قليلاً، هذا ما يمكّن الخفاش من الحركة الفعالة والمناورة السريعة. أمـا الخفافيش التي تسـتوطن مناطق الغابـات -مثلاً- يلزمها قـدرة عالية للمنـاورة؛ حيث تكثر عوائق الطيران من تشـابك الأغصـان وكثـرة الأوراق، ولذلك تكـون أجنحتها منخفضة التحمّـل. كما أنها تحتـاج إلى المناورة وتحاشـي الاصطدام بـأوراق الشـجر والالتفاف السـريع علـى الفريسـة، أكثر من حاجتهـا إلـى السـرعة الزائـدة. أما التـي تعيش فـي المناطق المكشـوفة الفسـيحة فتحتاج إلى المناورة السـريعة والتحرك النشـيط قبل كل شـيء، لذلك تكون أجنحتها عالية التحمّل. ومـن هذا المنطلـق كانت أجنحـة الخفافيـش المهاجرة، من أكبـر الأجنحـة حجمًا وطولاً بيـن أنواعنا... وهنـاك نوع من الخفافيش يعيش في البرازيل يستطيع الطيران لمسافة تتجاوز ١٠٠٠ كم.

وبهـذه الأجنحة التي تمكننا من الطيران، نشـكل الأمواج الصوتية التي تنسـجم مع سـرعة الطيران وتتناغم مع الحركة بأطـوالٍ معينـةٍ نسـتطيع مـن خلالهـا تحديد مواقـع الفرائس والمسـافات التي تفصلنا عنها، ونعيد حساباتها في كل لحظة لنكون على علم بها في كل آن. ربما كان الأمر سهلاً في صيد ضفدعـة أو فأرة سـاكنة أو جارية علـى الأرض، لكن يحتاج ذلك إلى حسـابات سـريعة ودقيقة ومتواصلة دائماً في تقدير المسـافة وتقييمها للانقضاض على الفراشة -مثلاً- التي تغيّر مكانها باستمرار، والتمكّن منها.

تملـك الخفافيـش الكبيـرة رؤية ثاقبة فـي العتمة والضوء الخافـت، وتصـل إلـى طعامهـا بهـذه الرؤيـة دون الحاجـة لـرادارات لا تملكها. وعلى الرغم من أن الخفافيش الصغيرة ليسـت عميـاء تمامًا، لكنها لا ترى بشـكل جيد، وتحتاج إلى منظومـة رادارية بالغة الحساسـية والدقة تسـتطيع من خلالها تحديـد موقع حشـرة على مسـافة خمسـة أمتار، وفـأرة على مسافة عشرين مترًا بلا تشوُّش أو ارتياب. ونملك أيضًا حاسة جيدة للشـم، فالخفافيـش ذات الأنف الورقي التي تسـتوطن أمريكـة الجنوبيـة، تسـتطيع تمييز الفلفل الأسـود الناضج من رائحته. والخفافيش ذات الأذن الواسعة والفم الكبير، تستطيع تمييـز صيدها بيـن القمامات، من رائحتـه. وخفاش "Soprano Pipistrelles" يميز بحاسة شمّه الخارقة، أفراد عائلته بين الأنواع الأخـرى. وعندما يحين موعد التكاثر، يفرز الذكور من الغدد الموجودة في رقبتها وأعضاء تناسلها وأجنحتها رائحة تميزهم.

حاسـة السـمع لدينا خارقة للعادة، فبعـض أنواعنا تجعلُ السـمع جـزءًا فضـلًا عـن منظومـة رادارهـا، إلى درجـة أنها تسـتطيع تمييـز صـوت حشـرة تتحـرك علـى ورق الشـجر. فالأنـواع التـي تعيش في الغابات؛ تسـتطيع تمييـز الأصوات الضعيفـة بين الحشـائش (١٠ — ٢٠ كيلوهرتـز) بفضل أنظمة السـمع التي لم تُكتشَـف بعدُ أبعادها الحقيقيـة بين الثدييات، وهـذه الأنواع تعتمد على حاسـة السـمع دون تفعيل رادارها في تعيين أهدافها.

وبالتالـي يوجد بيـن الأمهات وصغارها لغـة خاصة بهما تختلف عن اللغة التي نستخدمها مع الخفافيش الأخرى، وعن طريق هذه اللغة والأصوات تميز الأمهات صغارها عن الأخرى.

أكتفـي بهـذا القـدر في الحديـث عن نفسـي، وأظنكم قد عرفتم الآن بأني لسـت مصدرَ شؤم ولا حيوانًا عدوانيًّا شريرًا لكم. وأنا أعرف جيدًا أنكم لن تغيروا نظرتكم وآراءكم السيئة تجاهي بسهولة، كيف وقد أصبحت فيكم رمزًا للشر، وبلغت مضرب الأمثال للسـوء في أدبياتكم... لـذا أكتفي بهذا القدر عن الحديث عني، وأستودعكم الله في محبة واحترام دون أن أعبأ بما تقولونه عني، آملاً أن تنشأ فيكم أجيال يحسنون قراءة كتـاب الكون المنظور، ويشـاهدون الكائنـات بعين البصيرة، ويدركون الحكمة من وجودي في هذا الكون الشاسع. ■

(*) جامعة ٩ أيلول / تركيا. الترجمة عن التركية: مصطفى حمزة.

د. الحسين زايد*



قصة إنسان في رحلة الحياة

على هامش إحدى الاستحقاقات الفكرية التي يزخر بها الفضاء الجامعي، دار بيني وبين أحد الباحثين حوار سأحاول سرده كأنه حكاية تُروى من واقع هذا الزمان، حيث بادرني صاحبي بالسؤال:

- كيف حالك؟

- الحمد لله.

- ومن هو الله؟

فكان جوابي ما جاء على لسان موسى عليه السلام مخاطبًا فرعون:

- هو ﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾(طه:٥٠).

- هل تقصد بـ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ كل ما هو موجود؟

- بالتأكيد... كل المخلوقات من صنع الله الذي أتقن كل شيء.

- دعنا مع الإنسان محور كل المنظومات والأنساق، والذي استطاع أن يُخضع كل ما حوله لإرادته، وصاغ أنماطًا في الحياة إلى درجة مكنته من استنساخ الخلايا والأعضاء، أهو في اعتقادك خالق أم مخلوق؟

- إنه مخلوق بالتأكيد، وفي خلقه عبرة واعتبار.

- إذا سلّمنا بما تقول، فما الغاية من خلقه؟

- إن الله تعالى أنعم على الإنسان بنعمتين، نعمة الإيجاد حيث أوجده من عدم: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾(الإنسان:١)، ونعمة الإمداد حيث أمدّه بالقدرة والإرادة على تحقيق الأهداف المنشودة من وراء وجوده، وذلك في دائرة ما يُرضي الله لتبقى الغاية السامية من خلقه هي تحقيق العبادة بمفهومها الشامل، تلك العبادة التي تُفضي إلى الشعور بالسعادة.

- تجاوزًا، يُمكن أن أفهم نعمة الإيجاد، فما علاقتها بنعمة الإمداد وبسؤال القدرات والإرادات؟

- إن أجمل ما أمدّ الله به الإنسان هو الإرادة والقدرة على



الفعل وممارسة القراءة والفهم، وذلك بتوظيف العقل والقلب كمصدرين لتحصيل المعرفة... فوظيفة العقل، التمييز بين مسارات الخير والشر، والحق والباطل، والظلم والعدل، وعمومًا بين ما هو صالح وطالح... فالإنسان مسؤول عن توظيف ذكاء عقله واستثمار قدراته الفكرية، لتحقيق الغاية من وجوده حيث مُنح نعمة الإيجاد.

هنا قاطعني صاحبي...

- إن الذكاء ليس حكرًا على الإنسان، بل يتعداه ليطال الكائنات الأخرى وهذا بشهادة العلم... فما رأيك؟

إن عملية القراءة التي يقوم بها الإنسان لها مُخرجات، والتي يستطيع من خلالها القيام بعملية التقييم والتخطيط، بما يفضي من جهة إلى الحفاظ على الميزان الخارجي، ومن جهة أخرى إلى تفعيل الميزان الداخلي في الكيان الإنساني. فسلامة الوجود الإنساني تبقى مرتبطة باستراتيجية تأهيل وتمكين هذا الإنسان.

- حقيقة ما تُسمّيه ذكاء لدى الكائنات الأخرى نُسمّيه هداية... فلو كانت الأسماك ذكية لما استطاع الصياد النيل منها بطرق تقليدية، ولاستدعى ذلك توظيف تقنيات جدّ متطورة تتناسب وقوة ذكائها في عملية الصيد... ونفس المنطق يسري على أمثلة عديدة ومتنوعة بقوة السُّنن الطبيعية.

- وماذا تقول عن ظاهرة هجرة الطيور والأسماك بدافع الغريزة بحثًا عن أماكن أكثر سخاء وأمنًا؟

- ومن سمّى الدافعية لهذا السلوك الحيواني بـ"الغريزة"؟

- إنهم علماء الطبيعة الذين استطاعوا استقراء واستنباط قوانينها.

- جيد جدًّا... لكن خالق الطبيعة وواضع قوانينها سمّى هذه الدافعية "هداية". وحتى أكون أكثر توضيحًا، فإن مصطلح "الهداية" يكتسي أشكالاً عديدة... فهناك هداية الكتاب والرّسل، وهداية التأمل والاعتبار، وهداية التوفيق والخلق وهذا بيت القصيد، يقول تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ۞ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۞ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾(الأعلى:١-٣).

- إنه توظيف لمصطلح الهداية في كل شيء... فلم يبق لك سوى إدراجه في منظومتي الزمان والمكان.

- نحن نُساق إلى الله بالزمان، ذاك الوعاء الذي نسعى جاهدين لملئه بما هو مفيد. فتلك صحائفنا نملؤها بما نشاء. ولقد أبدع الحسن البصري حين قال: "يا ابن آدم إنما أنت أيام، فإذا ذهب يومك ذهب بعضك... ويوشك إذا ذهب البعض أن يذهب الكل، وقد علمتَ فاعمل". هكذا أضحى لزامًا أن نملأ وعاءنا الزمني في إطار الحيّز المكاني الذي نتحرك فيه بغية الحفاظ على الميزان، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۞ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾(الرحمن:٨-٩). ولقد أتى على لسان السلف الصالح أن الصلوات الخمس تُسمّى بـ"ميزان اليوم"، والجمعة بـ"ميزان الأسبوع"، ورمضان بـ"ميزان العام"، والحج بـ"ميزان العمر". حيث كان حرصُهم على سلامة اليوم، فالأسبوع، ثم العام، لينتهي بهم الأمر إلى سلامة العُمر فيما يرضي الله وهذا مسك الختام.

فعامل الزمان، هو الذي يتحكّم في وجودك ومظهرك وقدراتك... فلقد خُلقت من ضعف ثم وُهبت قوّة ليشتعل بعد ذلك رأسك شيبًا حتى لا تعلم بعد علم شيئًا... إنها سنّة الله في خلقه؛ حيث جعل الزمان عنصر ردع وقهر للإنسان، كي لا يزيغ وينحدر إلى مسلكيات ومُنعرجات الفساد... إنها...

قاطعني صاحبي سائلاً:

- لقد أسهبت في الكلام عن الزمان، أرجوك لا تسترسل كثيرًا في الحديث عن المكان.



- المكان هو المجال الذي سخره الله للإنسان لكي يحيا ويتحرك فيه: ﴿وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾(البقرة:٣٦)... فقبل خلق الإنسان أوجد الله المكان وأودع فيه نظامًا تكوينيًّا بميزانٍ وبقدرٍ معلوم: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾(الرعد:٨)، ونهى عن الفساد والعبث فيه: ﴿وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا﴾(الأعراف:٥٦)... هذا النظام التكويني لا يستقيم إلا بإقامة نظام آخر هو النظام التشريعي، إذ يُمكن اعتبار هذا الأخير، لوحة قيادة، ودليلاً يُحدد للإنسان الوجهة التي عليه أن يسلكها في الحياة، كما يُحدد له هذا النظام طبيعة العلاقة مع الخالق وباقي المخلوقات. فإذا كان تعاملُ الإنسان مع ما هو موجود، وفق التعليمات القرآنية "الدليل"، حصل التناسق والتناغم المُفضيان إلى التوازن، وإلا ظهر الفساد بما كسبت أيدي الإنسان وعمّ أرجاء المعمورة وما حولها.

- ماذا تقصد بالفساد؟

- الفساد منظومة أصبح لها آلياتها وأدواتها ومن يخطط لها ويدبّر شأنها... كما أن هناك أنماطًا عديدة من الفساد نذكر منها؛ الفساد الأخلاقي والتلوّث البيئي والإعلامي وبصفة عامة، مُحاولة تغيير اتجاه البوصلة والعبث بمضمون الدليل.

- هذا أمر طبيعي وتجل عادي للممارسات الإنسانية في الحياة قد يُفرزهما المجتمع في حركيته... ليبقى سؤالي لك عن كيفية معالجة هذه الظواهر الإنسانية.

- ما تقوله صحيح، إلا أن الأمر يرتبط بمدى إدراك الإنسان لما يسمّى بـ"الميزان" في منظومة الحياة وممارسته لعملية الفهم والقراءة الصحيحة والإحسان في التعامل مع كل ما هو موجو.

- هل من توضيح أكثر؟

- أولاً، فيما يخص الميزان، فإننا نعني به إقامة النظام التشريعي من أجل استقامة النظام التكويني، لأن تعطيل النظام الأول قد يُخلُّ بالثاني، وهذا يتطلب من إنسان هذا العصر، امتلاك مهارات وتقنيات القراءة والإتقان في الأداء والممارسة بما يحافظ على الميزان الناتج عن التفاعل بين النظامين المذكورين أعلاه.

ثانيًا، أما بالنسبة للقراءة، فإن لكل نظام كتابًا خاصًّا به، كتابًا مقروءًا ومسطورًا (القرآن الكريم) لمقاربة النظام التشريعي، وكتابًا منشورًا ومنظورًا (الكون) لمقاربة النظام التكويني... ولكل كتاب قراءة خاصة به: التدبر في كتاب الله: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾(محمد:٢٤)، والتفكّر في خلق الله: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾(آل عمران:١٩١). ومُمارسة القراءتين معًا، لابد أن تفضي إلى استخلاص العبر والنماذج من روعة الخلق وعظمة الخالق، ولك في مختلف أوجه الإعجاز (العلمي، الطبّي، العددي..) خير دليل وأحسن القراءات وأجملها: ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾(الملك:٣).

ثالثًا، إن عملية القراءة التي يقوم بها الإنسان لها مُخرجات، والتي يستطيع من خلالها القيام بعملية التقييم (قراءة ما تمّ فعله) والتخطيط (قراءة ما ينبغي فعله) بما يفضي من جهة إلى الحفاظ على الميزان الخارجي (بين النظام التشريعي والنظام التكويني)، ومن جهة أخرى إلى تفعيل الميزان الداخلي في الكيان الإنساني (بين القلب والعقل كمصدرين أساسين لتحصيل المعرفة الضرورية لممارسة القراءة الصحيحة في الحياة). فسلامة الوجود الإنساني تبقى مرتبطة باستراتيجية تأهيل وتمكين هذا الإنسان.

- مهلاً، عن أيّ تأهيل تتحدث، أرجو تبسيط الأمور والمفاهيم من فضلك.

- إن حركة الإنسان، تقتضي تأهيله وتمكينه من أجل بناء شخصية مُتّزنة ومتوازنة تُجيد فقهَ التّعامل مع الناس، وتحافظ على الموازين في أيّ مكان وزمان، وتحظى بعلاقة عبادة متميزة مع الخالق. وهذا يفترض في إنسان هذا الزمان الذي ظهر فيه الفساد بشتى تجلّياته، أن يمتلك المعرفة العلمية

بجانب القيم الأخلاقية.

فكل التوقعات المستقبلية تُنبئُ بظهور مجتمع الأخلاق على غرار مجتمع المعرفة الذي برز بدوره على حساب مجتمع المادة.

- جميلٌ تصنيفك هذا للمجتمعات الإنسانية، فما هو تصوُّرك لمجتمع الأخلاق الذي تنشده؟

- إن أُولى مُدخلاته تبدأ بقوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾(الإسراء:٨٠)؛ إنها قيمة الصدق كمفتاح، ثانيها: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾(هود:١١٢)؛ إنها قيمة الاستقامة كخط، ثالثها: ﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ﴾(القصص:٧٧)؛ إنها قيمة الإحسان كعطاء، رابعها: ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾(الحجر:٨٥)؛ إنها قيمة الصّفح كجمالية، وخامسها: وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾(الأنفال:٤٦)؛ إنها قيمة الصبر كمنحة. هذا التصور القيَمي يَستوجب وضع الفعل الإنساني في الإطار الاستراتيجي للدعوة بُغية تكريس وظيفة العبادة والاستخلاف، وهذا لا يتحقق إلا من خلال تحقيق ثلاثية "التمكين-التأييد-التسديد" لمجابهة تحديات هذا العصر: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾(الأعراف:١٠)، ﴿وَاللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾(آل عمران:١٣)، ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾(الأنفال:١٧).

- هل بمقدور مجتمع الأخلاق إنجاز ما فشل في تحقيقه مجتمع المادة والمعرفة؟

- نحن نقول بوجوب الحفاظ على الموازين تحقيقًا للغاية من الوجود: ١- ميزان النظام التشريعي والنظام التكويني، ٢- ميزان القلب والعقل، ٣- ميزان المعرفة والأخلاق... فلا طغيان ولا استعلاء لعنصر في المعادلة على حساب عنصر آخر. إنها رحلة الحياة، والحياة توشك أن تبلغ منتهاها، رحلةمسارها طويل وشاق، يتطلب إعداد الزاد: ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾(البقرة:١٩٧).

وإذا كان لكل رحلة نهاية ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾(الرحمن:٢٦)، فنهاية هذه الرحلة تبدأ بقصة أخرى في عالم أسمى، خال من ظواهر الفساد والممارسات الأرضية، حيث يبدأ مسلسل جديد في إطار ملحمة رهيبة، تتشكل عناصرها من عملية حساب وعرض كتاب وعدل ميزان ليس كموازين الدنيا، في دار أخرى تدعى الآخرة.

هنا ارتجف صاحبي عندما انتقلت بفكره من عالم الدنيا الفاني، حيث هدف الإنسان هو البناء المعماري وامتلاك الأدوات والانسياق وراء الشهوات، إلى عالم الخلود، ثم استدرك قائلا:

- ما الهدف من الانتقال لعالم آخر والحديث عن قصة أخرى؟

- إنها انتقال حتمي من عالم مشهود إلى عالم غيبي، يُسأل فيه الإنسان عن عمره فيما أفناه، حيث صاغ قصته في الحياة وحان الأوان لعرضها بكل تفاصيلها وفصولها أمام ملك الناس، بشهادة الملائكة والناس في مشهد رهيب اسمه يوم الحساب، ليقرأ كتابه بنفسه ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾(الإسراء:١٤).

- مصطلح القراءة من جديد، اقرأ؟

- أجل اقرأ، لكنها قراءة ما قَدّمتَ لحياتك من غير زيادة ولا نقصان. فإذا كانت قراءة الدنيا قراءتين، فقراءة الآخرة قراءة واحدة أمام الواحد الأحد، وهذا إثبات آخر لوحدانية الله، حيث لا يزيغ العقل ولا القلب أمام عظمة الخالق، وأنت في ضيافته وقد انتقلت من عالم العمل بدون حساب إلى عالم الحساب بدون عمل، فإما جنة ونعيم أو نار وجحيم. وهكذا يُسدل الستار عن تجربة الإنسان ورحلته في الحياة. إنها روعة الخلق وحكمة الخالق أمام جهل المخلوق وعظم الأمانة، ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾(الأحزاب:٧٢).

ودّعني صاحبي وهو ينزف عرقًا مما سمع، وأنا أدعو له بالهداية، هداية التوفيق، مستحضرًا قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۞ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۞ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾(الأعلى:١-٣).

- حياك الله.

بعد مغادرة صديقي، حاولت إعادة شريط الحوار بتفاصيله مسائلاً نفسي عن سبب التقصير في التواصل بين الناس، إذ غمرني إحساس غريب بأن شيئًا قد تغير في نفسية صديقي الذي كنت ألمس السخرية والاستعلاء في أسلوبه، حيث كان سؤاله الأول "من هو الله" ليودّعني باسم الله. فسبحان الله... ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾(فصلت:٣٤). ■

(*) كلية العلوم، جامعة محمد الخامس / المغرب.

إسلام العدل*

فرسان الأمل

يحملون رسـالةَ السـماء... يمضون بالحب والجمال والنقاء، يقصفون المدن الكئيبة حتى تنتفض من كآبتها القديمة، يوزّعون حقائبَ من نور تنتشـل الإنسـان من وحدته وشـروده وتيهـه الأربعينـي، وتنقلـه مـن خيامه القديمـة وأكواخه الممسـوخة، إلى قصـورٍ مجيدة، أعمدتها من إيمانٍ فتيّ، وأسـوارها من تقىً نقيّ، وأروقتها من عملٍ عفيّ، ونورها من عزمٍ أبيّ، وخدّامها من لؤلؤٍ مسجيّ... قصورٌ تشتاق سكّانَها بقدرِ اشتياقهم إن علموا أنها هنالك، من أجلهم هم!

إنهم فرسانُ أملٍ، يرفعون راية محبة وسلام، يغزلون ثوب سكينة واطمئنان، يعزفون على أوتار الكون أغنيـة جمـالٍ تهـدّئُ روعَ العالـم المرتبك في أوهام المـادة... والمقولب قهرًا تحت رايـة وجهها القبيح، والمتستّرِ مجازًا في أثمالها الرثَّة، إنهم حملة رسالة النور ومهندسو الضياء.

حياتهـم كلهـا لحظـات مخاض؛ يتألمون وحدهم، ويتأملهم غيرهـم في أمـلٍ غير منته لرؤية ثمار ذلك المخـاض العظيـم والانتفـاع الكوني بهـا... نعم حياتهم لحظـات مخاضٍ عظيم، يحملـون فيها كل آلام الكون، وكل هموم أهل الأرض في سـعيهم الدءوب للارتقاء بالإنسـان نحو الكمالات الإنسانية، والسمو به فوق أثمال المادية التي تجثم على صدره وتثقل كاهله وتدمع عينيه، علهم في سعيهم الدءوب المتفرد بنقائه يصيبون ذرة من رضى الله عن هؤلاء الذين بايعوه تحت شـجرة من مئات السـنين، أو يلمحون نظرة في عيون رسول الله ﷺ تنبئهم بشفاعة منه.

فرسـان الأمل، تنخلع قلوبهم، وتنخسـف حياتهم، وينكسف كونهم إذا ما نقص نقاء أعمالهم أو انطفأ طيفه بعض الشيء... فهم يؤمنون بأن النقاء ليس إلا نورًا من القلب يصاحب كل فعل وقول يصدر منهم، ولا يعكـر صفـوه إلا كل تعكـر يشـوب ذرة من إخلاصهم أو يمس ذرة مـن تجردهم المحمدي في رحلة سيرهم إلى الله تعالى في مواكب العشق والجمال.

نعـم يؤمنـون أن الدعوة رحلة حبٍّ، ومسـار عشـقٍ، وحملة ودٍّ للأغيار في حثهـم للانضمام لمواكب الجمال السائرة إلى الله، وليست ميدان حرب أو أرض صدام... نعم يعلمون أن التدافع بين الحق والباطل سيظل قائمًا ما بقي الزمان، فالحق لن ينتصر على الباطل بروح الصدام الحربية، ولكن بأخلاق المحاربين الأبطـال، الذيـن يحملـون في صدورهم قلوبًا عاشـقة تبكي بكاء الأم الثكلى في قتالهم الباطل خشـية أن يموت رجل على الباطل ولا يهتدي، فتكون نفسًـا فرت منهم إلى النار، أو يظل في شـقائه الدنيوي وتيهه الأربعيني لا يهتدي فيعاتبهم الله يوم القيامة عليه.

إنهم حملة رسالة، وفرسان أمل، ورجال دعوة، وعشّاق حق... أينما حلّوا حلّت البشرى، وتلألأت من حولهـم آيات الفتح وتباشـير الانتصار... إني أراهـم الآن رأي العين يحملون رايةً خفَّاقة، ويملؤني الأمل أن يقبلونـي خادمًـا فـي ركابهم، علّي يصيبني بعضًا من حب الله لهم، المرسـوم في نور وجوههم وجمال أعمالهم، ونقاء ثمارهم، فهلا يقبلوني؟ هلا يقبلوني؟ ■

(*) كاتب وأديب مصري.



د. زياد موسى أحمد*

نعمة المرض من وجهة أخرى

يقول رسول الله ﷺ: "مَا يُصيبُ المسلمَ مِن نَصَبٍ ولا وَصَبٍ ولا هَمّ ولا حُزْنٍ ولا أَذىً ولا غَمّ حتى الشوْكةِ يُشاكُها إلا كفَّر اللهُ بها من خطاياه" (رواه البخاري).

المرض ابتلاء لكي يتفكر الجميع ويعلم فضل الله ونعمه عليهم بالصحة. فمن المعروف أن "بضدها تتميز الأشياء"، والصحة تتضح بالمرض... وعن النبي ﷺ أنه قال: مَن رأى صاحبَ بلاءٍ فقال الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاك به وفضَّلني على كثيرٍ ممن خلَق تفضيلا إلا عُوفِيَ من ذلك البلاءِ كائنًا ما كان ما عاش". (رواه الترمذي)

المرض دعوة لتغيير السلوك

إن المرض دعوة للحذر وتغيير السلوك عند التعامل مع الأمراض المعدية، يقول ﷺ: "فِرَّ من المجْذُوم فرارَك من الأسد" (رواه الإمام أحمد)، والجذام مرض جلدي معدٍ يجعل الأطراف تتساقط. ومن سنته ﷺ أن لا ندخل أرضًا موبوءة، ومن يوجد في أرض موبوءة لا يخرج منها حتى لا يتفشى المرض المعدي... ومن الإسلام أن نأخذ حذرنا من الأمراض المعدية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾(النساء:٧١)، فمن الحكمة الحذر من الأمراض المعدية بلا تهوين أو تهويل.

وكذلك المرض دعوة إلى السلام ونبذ الحروب؛



فالتشـوهات والأمـراض الوراثيـة التـي نتجتْ عن اسـتخدام القنابـل الذريـة فـي الحـرب العالميـة الثانيـة فـي مدينتـي "هيروشـيما" و"نجازاكـي" اليابانيتيـن، والتـي لا يزال سـكان المدينتيـن يعانـون منهـا حتـى الآن، هي أكبـر رادع منع دول العالم من استخدام هذه القنابل في الحروب حتى يومنا هذا. فهذه التشـوهات والأمراض الوراثية تحمي العالم من أسلحة الدمار الشامل، وتدعو العالم للسلام والعيش في أمان.

وكذلـك المـرض دعـوة إلـى العـدل، وقد يجعـل بعض الناس يراجعون أنفسهم ويَزِنونها، كما يجعل بعض العلاقات الاجتماعيـة تعـود إلـى مجاريهـا؛ فزيـارة الأهـل والأصدقاء للمرضـى قد تعيد بعض المحبة والـود بين الناس... وبالتالي فإن زيارة المريض يأخذ المسلم عليها الثواب من الله والأجر، ففي الحديث القدسي أن الله ﷻ يقول لابن آدم: "مرِضتُ فلم تعُدْنـي. قال: يـا ربِّ، كيف أعودكَ وأنتَ ربُّ العالمين؟ قال: أما علمتَ أن عبدي فلانًا مرِض فلم تَعُدْه، ولو عُدْتَه لوجدتني عنده؟" (رواه مسلم)، ومن السـنة النبويـة أن يقول للمريض عند زيارتـه: "لا بأس طهور إن شـاء الله" ثـم يدعو له: "اللهم ربَّ الناس أَذْهِبِ البأس، اِشـفِ أنت الشـافي لا شـفاء إلا شفاؤك شفاءً لا يغادر سقمًا" (وراه البخاري).

ومـن الناحية الاقتصادية فإن الأمراض توفر ملايين فرص العمـل للبشـر فـي العالـم، حيث إن هنـاك العديد من البشـر يعملـون على علاج الأمراض في المستشـفيات والصيدليات وشـركات الأدويـة، وفـي الجامعـات والمراكـز البحثيـة من العلماء والباحثين، فنعمة الله على البشرية بحدوث الأمراض، أنعمتْ على البشرية بملايين فرص العمل.

المرض دافع لتقدم العلوم

حِرْص الإنسـان علـى علاج الأمراض، لـه الفضل في التقدم العلمي؛ فالأمراض هي سـبب اكتشـاف الميكروبات، وسبب الاهتمـام بعلـم الميكروبيولوجي (علم الكائنـات الدقيقة)... والأمـراض دافـع لتقدم عدد آخر من العلوم الأخرى التي لها الفضـل في تقدم البشـرية فـي نواحٍ صناعيـة وإنتاجية أخرى. فالتقدم في علم الميكروبيولوجي خدَم البشرية ليس في شفاء الأمـراض البشـرية فحسـب، بل فـي علاج أمـراض النباتات والحيوانـات، وفـي نـواحٍ إنتاجيـة أخـرى؛ حيـث تسـتخدم الميكروبـات فـي إنتـاج موادٍ أخرى فـي الصناعـة والزراعة، كذلـك تطور الميكروسـكوبات وأجهـزة التحاليل وغير ذلك مما يستخدم في علاج الأمراض، يسـتخدم فـي فروع علمية أخرى أدت إلى التقدم والرقي للبشرية.

والخوف من المرض رادع أقوى من أي قانون، وقد يكون عقابًا ربانيًّا للمجرمين والعاصين، فمثلاً الخوف من الأمراض التناسلية مثل الزهري والسيلان وكذلك مرض الإيدز، يجعل الكثيريـن يرتدعون ويمتنعون عن العلاقات المحرمة أكثر من خوفهم من القانون. ومن ثم فقد جعل الله الأمراض التناسلية رادع وعقاب سماوي لمن يفكر أو يفعل الفاحشة.

كما أن الخوف من الأمراض يدعو إلى النظافة الشخصية، مثل نظافة الأسـنان خوفًا من تسوس الأسنان، ونظافة الأبدان خوفًـا مـن الأمـراض الجلديـة، ودعـوة للنظافـة العامـة مثل الحفاظ على البيئة من التلوث.

والخـوف من الأمراض دعوة للاجتهـاد في العمل، حيث

يجعل مَن يجدّ ويجتهد يجد ثمار عمله نجاحًا وفرحة وأموالاً. فمثلاً الخوف من الأمراض التي تصيب النباتات والحيوانات، يدعو المزارعين وأصحاب مزارع الحيوانات إلى الاجتهاد؛ فالفلاح أو المزارع الذي يعتني بمحاصيله ويقاوم الأمراض التي تصيب هذه المحاصيل يحصل على محصول وافر، والكسلان الذي لا يهتم، يحصل على محصول قليل ويجد ما لا يسره. والذي لا يهتم بنظافة مزارع الحيوانات ويهتم بصحة حيواناته، تنفق منه حيواناته ويخسر الكثير من المال، والمجتهد الذي يعتني بصحة الحيوانات يكسب الكثير من المال.

والأمراض التي تصيب الأعداء الطبيعية للبشرية يستخدمها العلماء في المقاومة البيولوجية، مثل استخدام الميكروبات التي تتخصص في إحداث الأمراض للحشرات الضارة، يمكن استخدامها في القضاء على هذه الحشرات. وكذلك بعض الميكروبات التي تصيب الحشائش ولا تؤثر في النباتات الأخرى، يتم استخدامه في القضاء على هذه الحشائش.

المرض دعوة إلى الحركة والنشاط

المرض جند من جند الله. فعندما حاصر "نابليون بونابرت" عكا، ما صده عنها إلا إصابة جنوده بمرض الطاعون. والأمراض الوبائية ممكن عند انتشارها أن تكون أقوى من أيّ أسلحة وأيّ جنود تصيب الملايين من الضحايا، وتبيد الآلاف وتقتل الملايين.

كما أن المرض قد يكون دعوة إلى الحركة وعدم الكسل؛ مثل أمراض المفاصل، والعمود الفقري، حيث تكون الحركة والمشي من أهم وسائل العلاج. ولكي يتمتع الذين يمارسون أعمالاً مكتبية بصحة جيدة، يجب أن يمارسوا رياضة بصفة دورية، وأبسط أنواع الرياضة هو المشي. والكثير من برامج العلاج الطبيعي تعتمد على الحركة والرياضة، بل الحركة وممارسة الرياضة تنشط الدورة الدموية، وتقوي جهاز المناعة، وتقي من الكثير من الأمراض... ومن نعم الله علينا أنّ عباداتنا مرتبطة بالحركة، فالصلاة من أفضل وسائل علاج أمراض المفاصل، والسعي للصلاة في المساجد فيه رياضة المشي، والحج كل شعائره فيه حركة، ولكن الأهم أن تكون عباداتنا خالصة لوجه الله ﷻ.

المرض قد يجعل الكثير من الأغنياء يشعرون بالفقراء وحرمانهم ومعاناتهم؛ فكثير من الأمراض تجعل الأطباء يحذرون المرضى من تناول أصناف معينة من الطعام، ويمنع الأطباء المرضى من تناول ما يشتهون من أطعمة، خشية حدوث مضاعفات لهم نتيجة تناول هذه الأطعمة. وقد يتذكر الأغنياء من هذه الفئة من المرضى وعدم مقدرتهم على تناول ما يشتهون من أطعمة، بل وشراء حاجتهم الأساسية نتيجة الفقر وليس المرض، فينفقون الأموال على الفقراء ويتصدقون بها لوجه الله ﷻ لعله يشفيهم. وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ: "داووا مرضاكم بالصدقات" (رواه الطبراني)؛ فما تنفقونه من الصدقات -ابتغاء وجه الله- يوفى إليكم في صحتكم وفي أشياء كثيرة، فاعتبروا ما أنفقتم من صدقات ثمن دواء أو علاج، وثقوا أن الله يدفع به عنكم البلاء.

المرض دعوة للتواضع

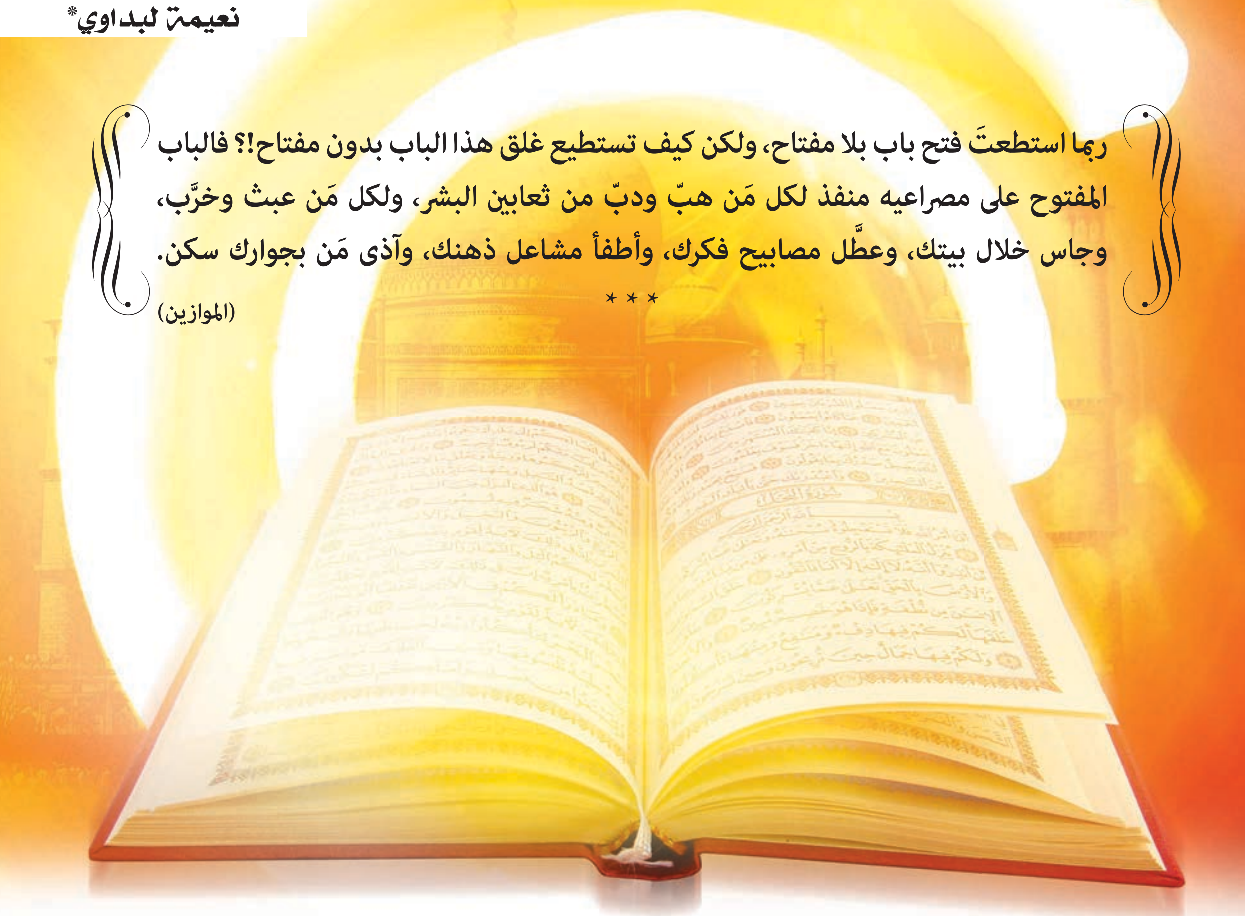
المرض دعوة للتواضع وعدم التكبر، وعدم الغرور لمن يملك قوة بدنية أو علمًا أو سلطة وجاهًا... فأقوى الأقوياء إذا أصابه حادث أو حمى يصبح لا حول له ولا قوة. وأذكي الأذكياء وأعلم العلماء قد يصيبه مرض ألزهايمر فلا يتذكر حتى اسمه ولا تنفعه ذاكرته ولا ذكاؤه. يروى أن أحد الحكماء سأل أحد الملوك: ماذا لو مُنع عنك الماء وكانت حياتك مرتبطة بشربة ماء؟ فقال الملك: أشتريها بنصف ملكي. قال الحكيم: ماذا لو مرضتَ ولم تستطيع أن تتبول وحبس في جسمك البول؟ فقال الملك: أشتري العلاج ولو بنصف ملكي! إذن بماذا نشتري صحتنا وسلامة أعضائنا كلها؟ فالصحة هي أفضل تاج على رؤوس الأصحاء، والصحة أفضل من أيّ سلطان وجاه.

وأوقات المرض، من الأوقات التي يستجاب فيها الدعاء، فيكون المريض قريبًا من الله. لذا يجب على من يعاني مرضًا أن يدعو الله بالخير له وللآخرين، وأن يغتنم الفرصة في الدعوات الصالحات.

وأخيرًا فإن الله ﷻ خلق لكل داء دواء، وأمرنا رسول الله ﷺ أن نسعى لعلاج أمراضنا. قالت الأعراب: يا رسول الله ألا نتداوى، قال: "نعم يا عباد الله تداوَوْا فإن الله لم يضعْ داءً إلا وضع له شفاءً إلا داءً واحدًا"، قالوا: يا رسول الله وما هو؟ قال: "الهَرَمُ" (رواه الترمذي). فيجب على كل إنسان مريض أن يسعى للعلاج، وكان من أدعية الرسول ﷺ: "اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة". ■

(*) معهد بحوث أمراض النباتات / مصر.

نعيمة لبداوي*



ربما استطعتَ فتح باب بلا مفتاح، ولكن كيف تستطيع غلق هذا الباب بدون مفتاح!؟ فالباب المفتوح على مصراعيه منفذ لكل مَن هبّ ودبّ من ثعابين البشر، ولكل مَن عبث وخرَّب، وجاس خلال بيتك، وعطَّل مصابيح فكرك، وأطفأ مشاعل ذهنك، وآذى مَن بجوارك سكن.

* * *

(الموازين)

من تجليات مفهوم القراءة

في القرآن الكريم

ليس من باب الترف الفكري البحث في مفاهيم القرآن الكريم. فالوحي مجموعة مفاهيم إذا ضُبطت ضُبط الدين. وبناء المفاهيم ضرورة حضارية، وفرض من فروض الكفاية الذي إذا لم يقم به أحد أثم الجميع.

إن المفاهيم القرآنية ليست ألفاظًا كباقي الألفاظ البشرية، إنها مستودعات كبرى للمعاني والدلالات... فقد تتكثف في مفهوم واحد ثقافة كاملة أو حضارة كاملة أو تاريخ بأجمعه، وهذا ما يتجلى من خلال الحظ وتتبع مفهوم القراءة في القرآن. فلقد كان أول ما نزل من الوحي هو الأمر بالقراءة: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۞ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۞ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۞ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾(العلق:١-٥)، ومن هذا الأمر تشكلت العقيدة والفكر والمجتمع ثم الأمة وبعدها الحضارة الإسلامية، واستمر البناء والتشييد الحضاريين باستمرار امتثالاً لهذا الأمر الإلهي الأول، وبهذا بلغت الأمة الإسلامية الشهود الحضاري، ودَعّم شهودَها هذا استمدادُها من قراءة مزدوجة للكتابين؛ المسطور والمنظور جنبًا إلى جنب. فكلما انحسر فعل القراءة في طرف دون الآخر توقّف البناء والعمران، أو حدث الاختلال والطغيان كما هو حاصل في الحضارة المادية.

فقراءةٌ هذا دورها وهذه فعاليتها، ليست بالمفهوم الشائع والمتداول للقراءة، فأول ما يتبادر إلى الأذهان عند سماع عبارة قراءة القرآن هو الجانب الصوتي وما له من أحكام وقواعد من ترقيق وتفخيم وغنة وإدغام وغير ذلك -مع أهميته- أو هو ترديد الكلمات عن طريق الشفاه دون عناء أو تكليف لإدراك كنه تلك الكلمات.

ثـم لمـاذا انحصـرت القـراءة فيما هـو مسـطور (الكتاب المسـطور/الوحي)، وغيبت قراءة المنظور (الكتاب المنظور/ الكون بكل ما بث فيه من خلائق).

إن أسـئلة مثـل هـذه وغيرها، دفعـت بنا إلى تتبـع مفهوم القراءة في بيئته القرآنية حتى يتسنى لنا -بإذن الله- بيان معانيه ودلالاته وفكه من الانحسار الذي أصابه.

فمـادة "قـرأ" في اللغـة تدور على أصل واحـد هو الجمع والاجتماع، ومنه القرآن سـمي بذلـك؛ لجمعه تراث النبوات وثمرة علوم الأولين والآخرين، ولاجتماع الناس/الأمة حوله.

وبلحظنـا لعمليـة القـراءة، نجدهـا تتركب مـن مجموعة عمليـات: نظـر وتدبر وتفكـر وعقل وتتبـع... وغير ذلك مما يُفعّـل عملية القراءة ويوصلها إلى الغرض المقصود الذي هو تحصيل العلم والمعرفة اللذين بهما تتحقق مهمة الاستخلاف والعبوديـة فـي الأرض. فالقراءة فـي القرآن ليسـت أمرًا كما اتفق، بل هي ذات محددات وصفات ومجالات.

محددات القراءة

سـنفرد بالـكلام محـددًا واحـدًا نـراه مـن أهـم المحـددات المنهاجيـة وآكدهـا، قـال ﷻ: ﴿اقْرَأْ بِاسْـمِ رَبِّكَ الَّـذِي خَلَقَ ۞ خَلَقَ الإِنْسَـانَ مِـنْ عَلَقٍ ۞ اقْرَأْ وَرَبُّـكَ الأَكْرَمُ﴾(العلق:١-٣)؛ يتبيـن مـن خلال الآيـات أن القراءة يجب أن تكون باسـم الله ومع اسـتحضار الله، فهو اسـتحضار دائم للعناية الربانية بهذا المخلوق الذي خلق وهو لا يعلم شـيئًا: ﴿وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَـيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّـمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِـدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْـكُرُونَ﴾(النحل:٧٨). فالإنسـان مدين لله في خلقه وعلمه ومعرفته، وهو بذلك غير مسـتغن عن الله ﷻ بل هـو دائمًـا، في حاجة إلى المدد الإلهـي والفتح الرباني، ومن ظـن أنه مستغن عـن الله في تحصيلـه المعرفي فهـو طاغ في الأرض ظالم لنفسه.

فالقـراءة باسـم الله ومـع الله تنتـج حضـارة ربانيـة قرآنية، حضـارةً قلبهـا التوحيـد، وطابعهـا التزكية، وهدفهـا العمران والصـلاح في الأرض. والقراءة المستغنية عن الله، هي قراءة إلحاديـة تكفـر نعـم الله، إلا أنهـا رغـم ذلـك تنتـج حضارة، حضـارة ظاهرهـا الرحمـة وباطنهـا العذاب، لأنهـا تفتقر إلى الرشد الرباني القرآني.

فالربانيـة فـي القراءة باسـم الله ومـع اسـتحضار الله، هي بمثابة عاصم من الوقوع في حبائل الشـيطان وسبله ومكايده، إنها تهدي إلى الرشـد والصلاح وتسـير بالإنسـان سويًّا على الصراط المستقيم.

صفات القراءة

١- صفة البشـرية: إن هذا الوحـي أُنزل إلى الإنسـان -أولاً وأخيـرًا- ليهتدي به ويعمله في مجاله، والاهتداء به لا يمكن أن يتحصـل بـدون القـراءة والفهـم والفقه عـن الله ﷻ كلامه وخطابـه. فالإنسـان هـو المكلـف بالقـراءة لمـا زود بـه من مؤهلات تمكّنه من ذلك.

ومن خصائص هذه القراءة البشرية النسبية، ذلك أن قدرات وطاقـات الإنسـان محـدودة مهمـا بلغت، وكل مـا ينتجه من علم ومعرفة هو محدود كذلك بالنسـبة لعلم الله ﷻ المطلق: ﴿وَفَـوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾(يوسـف:٧٦) ليبقى الإنسـان ينشـد الكمال ويبحث عن الحقيقة. "وليس كما يزعم دعاة الحضارة الغربية الذين يقوم فكرهم على أساس طغيان معرفة الإنسان، وهو ما عرف بالفاوسـتيه وتعني عبقرية الإنسـان وقدرته على اكتشـاف المجهول مهما بلغ هذا المجهول من خفاء، ولكون الإنسان قد أدهش بإنجازاته الضئيلة، فإنه غير قادر على تفهم معنى العناية الإلهية به، رغم أنه لا يزال في حضيض المعرفة فيمـا لـو علم أن ما تم اكتشـافه حتـى اليوم، ليس شـيئًا بإزاء غوامض وأسرار عالم الشهادة، فكيف بعالم الغيب؟!".[1]

٢- صفة الاسـتمرار والتجدد: قـال ﷻ: ﴿سَـنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنْسَى ۞ إِلاَّ مَا شَاءَ اللهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾(الأعلى:٦-٧).

يقـول الطاهر بن عاشـور: "والسـين علامة على اسـتقبال مدخولها، وهي تفيد تأكيد حصول الفعل وخاصته إذا اقترنت بفعل حاصل في وقت التكلم فإنها تقتضي أنه يستمر ويتجدد، وذلك تأكيد لحصوله، وإذا كان قوله: ﴿سَـنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنْسَى﴾ إقراءً، فالسين دالة على أن الإقراء يستمر ويتجدد".[2]

إن مـن خصائص الوحـي أنه مكنون تتكشـف معانيه عبر الزمن وحسـب الطلب وحسـن صياغة السـؤال، فمعانيه غير منتهيـة وإن كانـت ألفاظـه منتهية: ﴿قُلْ لَـوْ كَانَ الْبَحْـرُ مِدَادًا لِكَلِمَـاتِ رَبِّـي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَـاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِـهِ مَدَدًا﴾(الكهف:١٠٩)، ﴿وَلَـوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَـجَرَةٍ أَقْـلاَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَـبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيـزٌ حَكِيمٌ﴾(لقمان:٢٧). ومـن خصائـص الكـون وهو الكتـاب المعـادل للوحـي، أن حقائقـه غير منتهيـة -كذلك- بالنسـبة للإنسان. أما الله ﷻ فلا يخفى عليه شيء في الأرض

ولا في السماء ولو كان مثقال ذرة أو حبة خردل. هذا اللاتناهي هو السبب في استمرار وتجدد القراءة وفي تراكم العلم والمعرفة ليستوعب اللاحق السابق فيبني عليه أو يتجاوزه.

مجالات القراءة

تتعدد مجالات القراءة بتعدد موضوعاتها، إلا أنه يمكن جمع هذه الموضوعات في ثلاثة مجالات كبرى هي: مجال الوحي، ومجال الكون، ومجال الإنسان. فهي مجالات كلها تخدم هذا الأخير مجتمعة، وكلها تستقي من نبع المجال الأول وتنضبط بضابطه.

١- مجال الوحي: يعتبر الوحي مجال القراءة ومصدرها، فأول ما نزل منه هو الأمر بالقراءة في كافة المجالات التي ذكرناها. فمجال الوحي أوسع المجالات وأشملها باعتباره يستوعب الإنسان والكون، الزمان والمكان، عالم الغيب والشهادة.

فالوحي يقدم التصورات عن الله والآخرة، والملائكة، والرسل والرسالات، ويفتح عقل الإنسان وقلبه على الوحي في مجمله -من بدايته إلى منتهاه- والعلاقة بين الرسل والرسالات، وحقيقة الدين ومنتهاه. وهذه التصورات لا سبيل إلى إدراكها إلا عبر طريق الوحي.

ويقدم الوحي التصور عن الكون والخلائق المبثوثة فيه مما يدركه الإنسان وما لا يدركه، وعن العلاقات التي تربط هذه المخلوقات فيما بينها (كعلاقة السماء والجبال بالأرض وغير ذلك) وعلاقة المخلوقات كلها بالإنسان، وعلاقة الكون بالوحي.

كما يقدم التصورَ عن الإنسان، طبيعته وحقيقته، نفسه وروحه، مداخله المعرفية والنفسية، مكامن القوة فيه والضعف، أحواله وتقلباتها، وعلاقته بالله وبوحيه، وعلاقته بأخيه الإنسان، وعلاقته بالكون.

ويقدم الوحي التصورَ عن الحياة، وهي مسرح تفاعل الوحي والإنسان والكون، عن ماهيتها وبما تصلح وبما تفسد، عن تقلباتها وابتلاءاتها وغير ذلك.

القراءة ينبوع العطاء وينبوع كل المكاسب، ومكسب القراءة المباشر هو العلم والمعرفة، العلم بالوحي وبالكون وبالإنسان، وبهذه العلوم يعبد الله ويوحد، فمعرفة الله ﷻ هي رأس المعارف والعلوم، وبها تكون الشهادة على الناس، وبها يتحقق العمران، وبها تزكو الحياة وتستقيم.

فالوحي يقدم التصور العام الشامل عن كل من الكون والإنسان والحياة، أما تفاصيل الأمور ودقائقها، فمتروك للإنسان اكتشافها ومعرفتها من خلال اتصاله بهذه العناصر وإقباله عليها، وباستفراغ جهده ووسعه وتوظيف حواسه وقدراته المعرفية في الإحاطة بها.

٢- مجال الكون: إذا كان الوحي كلام الله المسطور، فإن الكون كلام الله المنظور: ﴿فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾(غافر:٦٨). وكل مخلوقات الكون تعمل بوحي من الله ﷻ: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾(فصلت:١١)، ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾(النحل:٦٨)، ﴿وَلِلّٰهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾(الرعد:١٥). وفي الكون تتجلى مجموعة من الحقائق التي وجه القرآن الإنسان إلى النظر فيها لمعرفتها وإدراكها ليحصل له اليقين، لأن النظر في الكون يقود إلى الإيمان. لكن هذا الأخير لا يكتمل إلا من خلال النظر في الوحي، لأنه هو الذي يقدم التصور الشامل للأشياء، وقد سبق أن قلنا بأن الوحي يقدم تصورًا شاملاً عن الكون وعلاقته بالإنسان التي هي علاقة تسخير، فعليه أن يبذل جهده ويشغل حواسه وقلبه في اكتشاف سنن التسخير وفقهها للانتفاع بمفردات الكون، فما من مخلوق في هذا الكون إلا وخلق لغاية وهدف، ولم يخلق الله ﷻ شيئًا عبثًا.

٣- مجال الإنسان: تنقسم القراءة في مجال الإنسان إلى قسمين: قسم يخص الإنسان في ذاته فردًا ثم مجتمعًا، والآخر يخص منتوج الإنسان المعرفي، أي ما خلفه البشر من معارف وعلوم، من خلال قراءتهم في مجال الوحي والكون والإنسان.

فالقسم الأول قراءته واجبة، لأن الإنسان هو المكلف بالاستخلاف في هذا الكون، ولا يمكن أن تقوم مهمة الاستخلاف كما أرادها الله بمنأى ومعزل عن الوحي. ومن هنا تأتي مهمة الإنسان المكلف بإدخال الوحي في مجال الإنسان

والحياة. ولكي يتحقق هذا، وجب معرفة المداخل والمنافذ التي منها يمكن إدخال الوحي وإنفاذه، ويمكن أن تتمثل في: معرفة معتقدات الإنسان (تصوراته عن الله والإنسان والكون)، وقربه أو بعده من الفطرة، بعده أو قربه من الوحي، عاداته وتقاليده وأعرافه، تاريخه، علاقاته، أفكاره... مما يستعان به في استمالته وإقناعه لإعادة تشكيله وصياغته بالوحي.

أما القسم الآخر فتجب قراءته، لأن الإنسان تكاملي في ذاته ومع بني جنسه، فكما أن الرسالات السماوية كانت تكاملية عبر الأزمنة والأمكنة، فإن المعرفة البشرية تكاملية هي بدورها عبر الأزمنة والأمكنة، وليست هناك معرفة بشرية مطلقة يمكن الوقوف عندها وعدم تجاوزها، بل الإنسان في اكتشاف واكتساب مستمر للعلوم والمعارف، لأن العلم والمعرفة يبنيان أولاً على التعليم الإلهي للإنسان ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾(البقرة:٣١) ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾(العلق:٤-٥)، ثم على العلوم والمعارف السابقة. وقراءة هذا التراث البشري المعرفي، هي قراءة استيعاب وتجاوز في إطار تصديق الوحي وهيمنته.

هكذا هي إذن هذه المجالات (الكون، الوحي، الإنسان) تبدو لأول وهلة أنها مستقلة بعضها عن البعض، لكن بعد النظر إليها جميعًا يتجلى ما بينها من تناغم وتواشج وتواؤم حتى تتسرب إلى ذهن الناظر قناعة بأنها لا يمكن أن توجد إلا مجتمعة. فلا يمكن تصور إنسان بلا مجال يسرح فيه ويوفر له حاجاته المعيشية والجمالية، كما لا يمكن تصورهما معًا (الإنسان والمجال/الكون) بدون وحي يقدم للإنسان التصورات عن نفسه وحقيقتها، وعن الكون وعلاقته به، ويرشد سلوك الإنسان ويهديه للتي هي أقوم.

فمن هنا تبرز وظيفة القراءة ودورها في تجلية هذا الناظم المنهجي لهذه المجالات حتى يكون سعي الإنسان مشكورًا في الأرض والسماء، فالقراءة ينبوع العطاء وينبوع كل المكاسب، ومكسب القراءة المباشر هو العلم والمعرفة، العلم بالوحي وبالكون وبالإنسان، وبهذه العلوم يعبد الله ويوحد -فمعرفة الله ﷻ هي رأس المعارف والعلوم- وبها تكون الشهادة على الناس، وبها يتحقق العمران، وبها تزكو الحياة وتستقيم. وبهذا تكون وظيفة القراءة هي تحقيق التوحيد والتزكية والعمران، وإن كان التوحيد يغني عما وراءه لأنه إذا تحقق التوحيد تحقق بالتبع العمران والتزكية، فالتوحيد رأس الأمر كله، وهو "بالعبارة البسيطة المتوارثة الاعتقاد والشهادة أن "أن لا إله إلا الله". وهذا القول بصيغة النفي، الموجز أشد الإيجاز، يحمل أعظم المعاني وأغناها في الإسلام قاطبة. وقد تتكثف في جملة واحدة ثقافة كاملة أو حضارة كاملة أو تاريخ بأجمعه. وهذا بالتأكيد ما نجده في "الكلمة" أو "الشهادة" في الإسلام. فكل ما في الإسلام من تنوع وغنى وتاريخ وثقافة ومعرفة وحكمة وحضارة، يجتمع في هذه الجملة البالغة القصر: "لا إله إلا الله".[٣]

أ-التوحيد: مدار التوحيد على شهادة "لا إله إلا الله"، وهذه الشهادة تعني الإيمان بأن الله هو الخالق الذي أعطى كل شيء خلقه فسوى، والذي قدر فهدى، والذي إليه يرجع الخلق وإليه يصير، المنزه عن كل ما يعرض للخلق ويتصف به. والإيمان بهذه الشهادة عن فهم وفقه، وإنما يتحصل الفهم والفقه من النظر في آيات الوحي وآيات الأنفس والآفاق، وذلك "يؤدي إلى إدراك أن جميع ما يحيط بنا من أشياء وأحداث، وكل ما يجري في الميادين الطبيعية والاجتماعية والنفسية هو من عمل الله، وتنفيذ لغاية من غاياته. وعندما يتم هذا الإدراك يغدو طبيعة ثانية للإنسان، لا تنفصل عنه طوال ساعات يقظته، فيعيش المرء كل لحظات حياته في ظل هذا الإدراك... ويترتب عن ذلك بالضرورة القول إن التوحيد يفيد إلغاء أية قوة فاعلة في الطبيعة إلى جانب الله، الذي تكون مبادرته الأزلية هي القوانين الثانية في الطبيعة... فهو يجمع كافة خيوط السببية ويعيدها إلى الله لا إلى القوى الخفية، وبذلك تنزع صفة القداسة عن مجالات الطبيعة وترجع إلى الله فلا قدسية لسواه، فهو القاهر فوق عباده ومخلوقاته".[٤]

ب-التزكية: تزكو النفس البشرية عن طريق القراءة، وذلك بمعرفتها حقيقة الوجود فتتجه نحو ربها خالق الوجود الحق، تنشده في كل وقت وحين، وتنبذ الهوى وتبعد الشيطان عن مجال حركتها وسعيها، وتبتعد عن الباطل والشرك والآثام. وتعرف أن الكون يسير عبر قوانين وسنن ثابتة ومنضبطة لا تتخلف، فتبتعد في تفسير الظواهر الكونية والإنسانية عن الخرافة والشعوذة والأساطير الباطلة. وتعلم أن الوحي نازل من خالق الكون والإنسان فتعرف أن الذي خلق أعلم بمن خلق، وأعلم بما يصلح وما يفسد الخلق، ما يزكي الحياة وما يدسيها، فتقبل عليه طالبة الرشد والهدى والصلاح في شتى مناحي الحياة. فإذا زكت النفس والحياة البشريتان، انصلحت

أحـوال القلوب، وتراجعت حظوظ النفس وشـهواتها لصالح نمـاء المجتمـع والعالـم، ثـم تحقق العمـران الذي هـو غاية الخلق.

ج-العمـــران الحضـــاري: لمـا أراد الله ﷻ أن يسـتخلف الإنسـان في الأرض قال للملائكة: ﴿إِنِّـي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِـدُ فِيهَا وَيَسْـفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْـدِكَ وَنُقَـدِّسُ لَكَ قَـالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَـا لاَ تَعْلَمُونَ ۞ وَعَلَّـمَ آدَمَ الأَسْـمَاءَ كُلَّهَا﴾(البقرة:٣٠-٣١). ويقول الله ﷻ: ﴿هُوَ أَنْشَـأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْـتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾(هود:٦١) وقوله ﷻ: ﴿ أَوَلَمْ يَسِـيرُوا فِـي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْـفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾(الروم:٩). غاية الاستخلاف في الأرض عمارتهـا، فالعمـران نقيـض الخـراب، لهـذا نجـد اعتـراض الملائكـة على اسـتخلاف الإنسـان في الأرض لأنه سيفسـد فيها ويسفك الدماء. والإنسان بطبيعته، فيه استعداد للإصلاح والإفسـاد، للتعمير والتخريب، يقـول ابن خلدون: "الاجتماع الإنساني هو عمران العالم، ويعترض لطبيعة هذا العمران من الأحوال مثل التوحش والتأنس والعصبيات وأصناف التغلبات للبشـر بعضهـم علـى بعـض، وما ينشـأ عن ذلك مـن الملك والدول ومراتبها، وما ينتحله البشـر بأعمالهم ومسـاعيهم من الكسـب والمعاش والعلـوم والصنائع، وسـائر ما يحدث في ذلك العمـران بطبيعته من الأحوال".[٥] فالعمران عامة يتحقق مـن خلال تفاعل قانون الاسـتخلاف وقانون التسـخير، لكن في المنظومة الإسلامية يتحقق العمران من خلال تفاعل ثلاثة قوانين: قانون الاسـتخلاف: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَـاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾(الأنعام:١٣٣)، وقانون التسخير: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَـا فِـي الأَرْضِ﴾(لقمان:٢٠)، وقانون التيسـير: ﴿وَلَقَدْ يَسَّـرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾(القمر:١٧).

فتعمر الأرض إذن، وتنشأ الحضارة وتتشكل في المنظومة الإسـلامية، من خـلال تنزيل قراءة الوحي والكون والإنسـان فـي واقع الناس، فيتشـكل المجتمع/الأمة على أسـاس سـنن الاجتماع الإنسـاني، وتنتظم علاقاته (الاجتماعية-الإنسـانية، والسياسـية، والاقتصادية...) على أسـاس مـن الوحي الرباني وهدي منه. وتزدهر الحضارة وتنمو الصناعات وتنشأ المباني والمؤسسات، مما ينفع الناس ومما لا تقوم الحياة إلا به، من خلال حسـن اسـتثمار ثروات الكون والانتفاع بها وفق قانون التسخير.

وخلاصـة القول، فبالقراءة تزكو الحيـاة، وتنمو الكفاءات والقدرات، يقول جودت سعيد: "إن حل مشكلات الإنسانية، ونفـي تهمة الملائكة لبني آدم، وإخراج الإنسـان من الفسـاد والسفك (...) لا يتم إلا بالتسخير الحق لقدرة القراءة.

إن التسـخير الحـق لقـدرة القـراءة، يجعل الإنسـان يطير بجنـاح القـراءة ويتغلب على المشـكلات. لا يغرنك شـيوع الفسـاد والسـفك في العالم، إن إنسـانًا أدرك كيـف بدأ خلقه وكيـف وصل إلـى ما وصل إليـه وتجاوز ما تجاوز، سـيعلم كيف سيصل إلى ما لم يصل إليه بعدُ، وكيف يتجاوز العقبات التي خلفها".[٦]

إن الأمـم الغربيـة تقود العالـم اليوم بالقـراءة -لأن الأمم القارئة هي القائدة- وتشـد إليها أنظار كل البشـر رغم ما ينتج عـن قراءتهـا من فسـاد في البـر والبحـر، لأنها قـراءة أحادية النظرة، فما بالك لو كانت هناك قراءة للأمة الإسلامية تعطيها قوة روحية وأخرى مادية، فيظهر صلاحها في البر والبحر، ألا تتحول إليها أنظار البشـر ينشدونها، وتستقطب الناس من كل حدب وصوب، وتقود البشرية إلى شاطئ الأمان؟! لكن الأمة الإسـلامية لم تسـخر قدرة القراءة التسـخير الحـق، فبدل أن تصنـع من قراءة القرآن حضـارة، صنعت من قراءتها الخاطئة طريقًا للتواكل، والجهل، والفرقة، والتنازع، والتشاكس. ■

(*) باحثة في الدراسات القرآنية / المغرب.

الهوامش

(١) الإنسان والحضارة في القرآن بين العالمية والعولمة، للدكتور فرح موسى، ص:٩٦-٩٧، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، دار الهادي.

(٢) التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور، ج:٣٠، ص:٢٨٠.

(٣) أطلس الحضارة الإسـلامية، للدكتور إسـماعيل راجي الفاروقي والدكتور لمـوس لميـاء الفاروقـي، ترجمـة: عبد الواحـد لؤلـؤة، ص:١٣١، ط:١، ١٩٩٨، مكتبة العبيكان (الرياض)، المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

(٤) نفس المصدر، ص:١٣٩-١٤٠ بتصرف.

(٥) مقدمـة ابـن خلـدون، لعبـد الرحمـن بـن محمـد ابـن خلـدون، تحقيـق الدكتـور درويـش جويـدي، ص:٤٠، المكتبـة المصريـة صيدا-بيـروت ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.

(٦) اقرأ وربك الأكرم، لجودت سعيد، ص:٧١.

د. حسن أيدنلي*

مفعم بالإيمان قلبك.. يقطر حبًّا، وينضح مودةً.. لا الكراهيةَ يَعرف، ولا البغضاءَ ذنبًا يقترفُ..
أما المفعمون بالكراهية، النافرون من الجميع، فأولئك مرضى قد احتوتهم الشياطين، ومسكنًا اتخذتهم، وأعشاشًا للتفريخ جعلتهم.

(الموازين)

* * *

الطلاق

أكبر تهديد على الأسرة

الزواج من المراحل المهمة في حياة الفرد، وبه يُتاح للفرد أن يغدو أبًا أو أمًّا. وقد يبدو الزواج أو الأبوة أو الأمومة أمرًا عاديًّا لبعض الناس، بيد أنها تتطلب مسؤولية كبيرة كمًّا وكيفًا. ففي أثناء هذه المرحلة من الحياة يتأثر الفرد سلبًا أو إيجابًا؛ إذ تفضي مشكلات الحياة الزوجية إلى الطلاق أحيانًا. ولابد من التنويه إلى أن الطلاق أو التفكك الأسري، يؤدي إلى تحولات نفسية واجتماعية في المجتمعات. لذا يتطلب هذا التفكك في الأسرة، دراسة عميقة وتركيزًا دقيقًا من قبَل المهتمين المتخصصين. جاء عن النبي ﷺ أنه قال: "أبغض الحلال إلى الله تعالى الطلاق" (رواه ابن ماجة)، وهذا يزيح الستار عن مدى أهمية مؤسسة الزواج.

وتزداد نسبة الطلاق بتأثير التحوّلات والتبدّلات التي تطرأ على الحياة الاجتماعية والفردية مع الزمن. وكما جاء في السجلات القضائية التركية، فإن دعاوى الطلاق ازدادت بنحو ضعفين ما بين عامي ١٩٨٦-١٩٩٨. ووفقًا لبيانات مؤسسة الإحصاء التركي التي تم الكشف عنها في عام ٢٠٠٦، أن نسبة الزواج وصلتْ إلى ٦٣٦,١٢١ بينما نسبة الطلاق بلغت



٩٣,٤٨٩، أي إنه ينتج عن كل مائة حالة زواج خمس عشرة حالة طلاق.

أكثر أسباب الطلاق شيوعًا هو عدم التوافق بين الزوجين ثم الهجر، فضلاً عن الأمراض العقلية، وضرب الزوج زوجته عمدًا، وارتكاب جريمة الزنا... وقد يتغير هذا الترتيب بتغير الأيام والأزمان.

لا ريب أن من يتتبعون الملذات باستمرار لن ينالوا السعادة الحقّة أبدًا. وإذا تأملنا في أسباب الطلاق اليوم، سنجد أنْ لا قيمة لها في حقيقة الأمر، إلا أنّها تؤدي في كثير من الأحيان إلى دمار الأسرة وتشتيت شملها. ومما لا شك فيه أن عوامل الضغوط النفسية والتغيرات الاجتماعية لها أثر بالغ في الطلاق... وإذا شبّهنا الأسرة بالكائن الحي نرى تارة الأمراض الباطنية وتارة أخرى الميكروبات الخارجية تعمل على هدم بنية هذا الكائن الحي وتدميره.

يعتقد الكثيرون أن الطلاق هو السبيل الوحيد للتخلّص من المشاكل، أو الحصول على السعادة والهناء. إلا أنهم لم يضعوا بالحسبان أنّ الطلاق إنْ خلَّصهم من مشكلة فإنه سيوقعهم في مشاكل أخرى متعددة... لذا، لا يمكن النظر إلى الطلاق على أنه بداية مرحلة جديدة وجميلة، بل يجب النظر إليه على أنه مرحلة من مراحل الحياة تغلب عليها السلبيات وتحيطها من كل الجوانب. إن الوقائع التي تحدث قبل الطلاق وأثناء الطلاق وبعده، غالبًا ما تخلق نتائج سلبية، وتؤدي إلى تفككٍ وتمزّقٍ خطير في كيان الأسرة، ومن ثم تكون سببًا في غياب الماضي المشترك والحياة المشتركة.

وقد بيّن الله تعالى في سورة الطلاق أحكام الطلاق؛ منها زمن وقوع الطلاق، ومدة العدة التي تمضيها بعد الطلاق قبل أن تتزوج المرأة مرة أخرى، وغيرها كثير. فمن الواجب على المؤمنين أن يحرصوا أيما حرص على إدامة الحياة الزوجية والمحافظة عليها، وألا يلجؤوا إلى هذا المسار إلا إذا غدت مشكلات الأسرة الداخلية جحيمًا لا يطاق.

الجانب الروحي لدى الأسرة

الأسرة مؤسسة مقدسة وليست بضعة أفراد جمعتهم الصدفة، فالإسلام قد أعطى الأسرة من المعاني الحقيقية ما أعطى، وبيّن المقومات الروحية والديناميات الحيوية لماهية الأسرة بأدق التفاصيل... ومن الأهمية التي منحها الإسلام للأسرة، غدت الأسرة مؤسسة قوية رصينة في الحياة الاجتماعية. كما أن عقد الزواج في القرآن الكريم، يعتبر ميثاقًا أبديًّا يتطلب من الزوجين الالتزام به والشعور بالمسؤولية تجاهه، لأن حفظ نسل بني آدم، والتكاثر، والعفاف يحصل نتيجة الزواج.

عندما بيّن القرآن الكريم مدى القرب بين الزوجين، عدّ كلًّا منهما لباسًا للآخر، وهنا ينبغي لمن يقدم على الزواج أن يتذكر أنه -بهذا العقد- قد خطا خطوة دنيوية وأخرى أُخروية. وهذا ليس لغزًا محيّرًا، بل إنه أمر لابد من الانتباه إليه قبل الزواج، ومن يمعن حقًّا في بنية الأسرة وهيكلتها، يجد أنّ الطلاق لا يُلجَأ إليه إلا اضطرارًا... فعندما لا يُستوعَب معنى مؤسسة الأسرة ويدرك بحقٍّ، يُعتقد أن الطلاق أبسط وأسهل طريقة لحل المشاكل، بينما النظرة إلى الطلاق على أنه الملجأ الأول في حلّ المشاكل اليومية، مصدرها التوهم بأن كل شيء سوف يُحلّ بالطلاق... ويعتبر اللجوء إلى الطلاق بسرعةٍ من الأمور التي غالبًا ما تؤدي إلى قرارات خاطئة وسلبية، يبد أن المفضّل في مواجهة المشاكل الأسرية -التي يُحتمَل أن تقع في كل أسرة- إحياء المحبة والاحترام المتبادل من جديد، والتحمّل على بعض المعاناة، والدعاء المتبادل، والتركيز على الجوانب الروحية... إن المسؤولية الكبرى لتكوين كيان الأسرة المعنوي والروحي تقع على عاتق الأبوين بالدرجة الأولى، لأن الأبوين هما من يحدد أولويات الأسرة.

وهذا الجانب المعنوي يتألف من قيم، منها التضحية والإيثار وعدم الأنانية، والتقدير، والحب، والتسامح، والتضامن والتعاون، وتأسيس السعادة والطأنينة، والصبر وعدم جرح مشاعر الآخرين بقولٍ أو فعلٍ. فإن انعدم الكيان المعنوي في الأسرة احتلت العوامل المادية موقع الصدارة فيها، وبالتالي فإن العوامل المادية كالمال والجمال والشهرة لا تقيم أسرةً، لأن اللهث وراء الملذات والشهوات المؤقتة ستهزّ حتمًا دعائم هذه الأسرة وتشتتها... فلن تكون الأسرة أسرة حقيقية إلا إذا كانت العوامل الروحية سائدة في كيانها. فالأسرة التي تخلو من المقومات المعنوية، تكون عرضة لتعشش الأمراض فيها، وقد تؤدي هذه الأمراض إلى تغيير سلوكيات الأفراد ومشاعرهم الودية تجاه بعضهم البعض، ومن ثم إلى تغيير نظرتهم إلى الحياة يومًا بعد يوم... والأسرة التي تتغير سلوكياتها ومشاعرها، تتشابك أفرادها فيما بينهم

وتخوض في صراع ظاهري حينًا، وخفي حينًا آخر... وقد ينتبه الأطفال إلى الصراع الظاهري بسهولة، فضلاً عن أنهم ينتبهون أيضًا إلى ما يخفى من مشاكل وشقاقات بين الأسرة، ومع مرور الأيام تتولّد عند الأطفال مشاكل نفسية خطيرة. إن المقومات الروحية تمثّل دعمًا للأسرة لمواجهة المشاكل، فالأسرة تشبه البنية السليمة، فإذا كانت متماسكة صعُب تفككها، وكانت كالبنيان المرصوص لا يتصدَّع ولا ينهار بسهولة.

> **لَما كانت خِلقة الرجل تختلف عن المرأة، اختلفت واجبات وحقوق كلٍّ منهما في الحياة الأسرية.. فالزوج مسؤول أمام الله وأمام نفسه عن صون عرضه وشرفه. فإذا أُدّيت الواجبات والحقوق بنية حسنة في وسط أسريّ يعمّه الحب والاحترام، فلن يستاء أحد من أحد أبدًا.**

الطلاق سبب للأمراض الروحية

البنية الشخصية والأخلاقية هما طريق تعزيز الروابط المعنوية في الأسرة، بينما تشكِّل الأمراض الروحية التي يخسر بها الفرد الحياة الأبدية، خطرًا على الشخصية المعنوية للأسرة. ولا شك أن أفراد الأسرة الذين يقترفون المآثم كشرب الخمر ولعب القمار والزنا، يسهّلون انفكاك الأسرة. وقد تزداد السلوكيات السلبية عندما لا يراعي الإنسان حقوق الآخرين وينتهكها، بل إنها تنعكس مع الزمن على أقربِ مَن يمارس هذه السلوكيات... وإذا بالروابط الأسرية تضعف، وتتقطع بعد فترة معينة. إن المخاطر التي تهدّد الأسرة اليوم هي نفسها التي حرّمها ديننا. ففي المنزل الذي يشرب فيه الخمر -على سبيل المثال- يشيع فيه العنف والفقر والاضطرابات السلوكية، أما من يرتكبون الزنا فإنهم في الحقيقة لا يضرون إلا أنفسهم، ثم يفقدون أهمّ القيم والمبادئ تدريجيًّا... فالخمر والزنا والقمار والكذب من الأسباب الرئيسية في التنافر وعدم التفاهم داخل الأسرة؛ لأن السعادة والثقة والتضحية، لا تجتمع مع الخمر والزنا والكذب والقمار، ومن ثم تتقطع الروابط الأسرية.

الأنانية والحرص على السعادة الفردية، تعتبَر من الأمراض النفسية التي تؤدي إلى الطلاق. أمّا الذي يؤمن بالكيان المعنوي للأسرة يعكس ذلك إلى سلوكياته. فالسلوكيات التي تنشأ في جوٍّ من التضحية، تحث الآخرين على التضحيّة والتأسّي بها. أما الشخص الأناني الذي يرفض الرأي الآخر ولا يفكر إلا في مصلحته الخاصة، فهو يفسد سلوكيات الآخرين أيضًا... بعبارة أخرى إن الذين يرون التضحية يسلكون طريق التضحية، وأما الذين يرون الأنانية يقولون "لماذا سأكون أنا المضحي دائمًا" ومن ثم يبتعدون عن السلوك الإيجابي يومًا بعد يوم.

ونادرًا ما تستمر التضحية من طرف واحد، لأنها تتطلب صبرًا كبيرًا ومعاناة... والأنانية معناها تجاهل الآخرين، حيث الأناني لا يفكر إلا بنفسه، ولأنه يركّز على كلمة "أنا" دائمًا، ينعدم عنده مفهوم "نحن". كما أن الحرص على السعادة الفردية، مظهر من مظاهر الأنانية؛ فقول "سعادتي فقط ولا سعادة غيري" يؤدي إلى عزلة الإنسان ويؤدي كذلك إلى الطلاق أيضًا.

عنصر المساواة في الطلاق

لكلٍّ من الرجل والمراة واجبات وحقوق في النظام القانوني.. ولما كانت خلقة الرجل تختلف عن المرأة، اختلفت واجبات وحقوق كلٍّ منهما في الحياة الأسرية.. وقد تم تحديد هذه المسؤوليات والواجبات لكلٍّ من الرجل والمرأة تجاه أولادهما بشكل واضح.. ففي كتاب الله من سورة النساء أنّ الرجل هو رب المنزل وراعيه، والقائم بالمهامّ الشّاقة داخل المنزل وخارجه.. وعلاوة على إدارة الرجل للمنزل فإنّ عليه تقدير زوجته ورعاية حقوقها، فالزوج مسؤول أمام الله وأمام نفسه عن صون عرضه وشرفه.. فإذا أُدّيت الواجبات والحقوق بنية حسنة في وسط أسريّ يعمّه الحب والاحترام، فلن يستاء أحد من أحد، أمّا احتلال المرأة لموقع الصدارة بإفراط وبلا ضرورة، واستغلالها حريتها الاقتصادية ورقةً رابحة تجاه زوجها، وقولها "أنا أملك المال ولا أحتاج إليك، فسأفعل ما أريد"، وغياب الاحترام والإحساس بالمسؤولية تحت اسم المساواة.. فذلك كلّه بمنزلة زرع ألغام تحت أسس الأسرة.

والمبالغة في فكرة المساواة بين الجنسين، أَدْخَل المرأة في صراع مع الرجل، فقُضِي بذلك على الطمأنينة، ونشأ

خلط بين دور الرجل ودور المرأة عقِبَه نظامٌ أسريّ تشيع فيه المخاوف الاقتصادية، وأسفرت دعوة المرأة إلى العمل عن وجود أفراد في الأُسرة مستعدِّين لقطع المودَّة والانفصال المادي وإن كانت المشكلة تافهة.. فمن هذه الناحية لا ينبغي أن ننكر أنّ رياح نظرية المساواة بين الرجل والمرأة اقتلعت كثيرًا من جذور الأسر.. ولقد أثّر الإعلام على دور المرأة فغيّر فيه كثيرًا، وعُرِضَت التضحية في سبيل الأسرة على أنها سلوك بسيط ومستوى محدود، وسادت فكرة خاطئة مفادها؛ المرأة الأمية غير المتعلمة أحسن من المتعلمة المثقفة. ولكن الحقيقة أننا في حاجة إلى امرأة ترى خدمة زوجها وأبنائها واجبًا مقدَّسًا، وتحظى لدى زوجها وأبنائها بما تستحقه من احترام.

التدخل مباشرة في مشاكل الأسرة

كل عائلة من الممكن أن تمرّ بأوقات عصيبة، ومن المفيد في باب حقوق الزوجين وواجباتهما، أن يقوم كل منهما بالكشف عن أمراضه المعنويّة بأسلوب مهذب.. فأهمُّ شيء هو وجود القابلية للكشف عن هذه الأخطاء والتعبير عنها بطريقة مهذبة.. فأسلوب التعبير عن الخطأ مهمّ جدًّا في إصلاحه؛ فاستخدام التعبيرات التي توحي بتجريم المخاطَب واتهامه والتهوين من أمره، تزعجه بلا شك، فلا أحد يرفض المداخلة البناءة والمساعدة والنيّة الحسنة.. إن حرص الأزواج على مصادر الغذاء الروحي، يزيد طمأنينة الأسرة ويقوّي بنيتها بأطفال ينشأون في هذا الجوّ الروحي، ويقي الأسرة من التعلُّق المفرط بالتلفاز والحاسب الآلي والرسائل الواردة من عوالم أخرى.. فالتعلُّق المفرط بما سبق، يُعدِم هوية الأسرة ويغيِّب الشخصية الروحية لها.

ينعكس حزن الإنسان المكتئب على تصرفاته أيضًا، فالوالد، كان أبًا أو أمًّا، إذا كان غضوبًا أو ضجِرًا أو متوتر الأعصاب، فإن تصرفاته هذه تنعكس على الأسرة فتجلب لها الحزن والأسى، وها هنا تضطرب علاقات الأسرة وتتوتر وتخمد طاقتها الإيجابية.. وفي هذا الموقف يسود القلق والتوتر بين أفراد الأسرة، وما إن تمضي فترة حتى يتم أخذ القرار بالطلاق..

فنسبة ٤٠٪ من حالات الطلاق، تكون في السنوات الخمس الأولى، ولا يحدث الطلاق عند التدخل فورًا -وفي الوقت المناسب- في مشكلات تقع في الفترة الأُولى، على أن تُترك المشكلات الصغيرة للزمن.. ومن نتائج حلّ المشكلات إبان حدوثها وترك التافه منها للزمن، أنْ تناقصت نسبة الطلاق بعد السنوات العشر الأولى إلى نصف ما كانت عليه في الخمس الأولى من الزواج.

التدخل الخارجي في شؤون الأسرة

حيث تنتشر العادات والتقاليد، يكثر تأثيرها في حياة الأبوين والأبناء، فمثلًا لا حرَجَ -البتة- في عيش الجد والجدة في منزل الأسرة، بل إنَّ لوجودهم فوائد جمَّة، وبوسعهم أن يعيشوا حيث شاؤوا في هذا المنزل أو في غيره.. كما أن تدخلهم المفرط في الحالة الأسرية، يكون بمثابة بوّابة لمشكلات كبيرة.. وكنا قد شبهنا الأسرة بالكائن الحي؛ فالمداخلات التي تحدث للكائن، يجب أن تكون إيجابية وداعمة، وهكذا الأسرة، فإنّ على أفرادها أن يقدّموا تعليقات إيجابية دائمًا -لا سيما ما يتعلَّق بالأبوين- ويتجنّبوا السلبيات.. فما يكون بين الزوجين من غيبة أو نميمة أو شائعة أو بهتان، يجلب شرًّا مستطيرًا على الأسرة، فمن الضروري لكل أب وأم أن يحبّا ابنهما ويفكرا في سعادته، وأن يحرصا عليه أيّما حرص، فيتدخلا بطريقة إيجابية بعد زواجه إذا ما اقتضى الأمر.. فالتدخلات المفرطة وغير الضرورية، تأتي بردود أفعال بعد فترة ما، فيدخل الزوجان في صراع بسبب أهليهم.

إن مبدأ "فليقل خيرًا أو ليصمت" هنا، يتعيّن تطبيقه، أمَّا الذين يشتّتون الأسرة من أجل إيجاد زوج أفضل أو زوجة أفضل لأنفسهم، فإنهم يواجهون مشكلات عصيبة بعد ذلك، فالأهل الذين يمزقون الأسرة ليحظوا بمن هو أفضل زوجًا كان أو زوجة، يواجهون مشكلات عصيبة فيما بعد، وسرعان ما تتفكك الأسرة بالتدخل الخارجي، وهو من أسباب الطلاق المؤسفة، وأحيانًا تتفكك الأسرة بالقيل والقال.

وفي النهاية لا ينبغي أن يُتَّخَذ قرار الطلاق البتة إلا بعد أن يفكِّر الفرد مليًّا فيما للطلاق من عواقب لا تنتهي. ■

(*) جامعة إسطنبول / تركيا. الترجمة عن التركية: مصطفى عباس.

أ.د. محمد عالم نختر*

بشرى قدوم محمد ﷺ

بشرى قدوم محمد لنسائم ... منذ البداية صار يعلن أدم

كل النبي أذاعه متتابعا ... ذكرت له بالاتضاح علائم

فالخلق منتظر له متواترا ... فبدت وبانت للجميع علائم

ببشارة الإتيان فاحت كعبة ... بطحاء مكة للسعادة باسم

وبها تسلى الصالحون سعادة ... وتقلبت للفاجرين نظائم

طربت بإتيان النبي عوالم ... تمت تماما للنبي مراسم

والأرض احتضنت نبيا ساجدا ... لم تحتضن مثل النبي عوالم

جبل الصفا لمحمد كالمنبر ... ولخطبة أولى له هو قائم

منذ الرسول منذر متوقع ... من للنبي من العشيرة هائم

هو صار منتظراً لخطبة أحمد ... ومن العشيرة للنبي مساهم

نشرت زهور عطرها بتنوع ... أي الأريج يروق من هو قاسم

خجلت زهور أن تزور محمداً ... فتمثلت عند النبي شمائم

والبدر يغبط نوره المتنور ... من نوره قد تستنير عوالم

ولمرتين مؤذن يتشهد ... فمحمد عند الشهادة باسم

خمس من الصلوات تشهد أحمد ... فعلى شهادته تغن عوالم

أسمى الخواتم شاهد لنبوة ... في الكون تعجز في المثال خواتم

هو من له سجد الجماد جميعه ... سجدت له للاحترام بهائم

شجر أظل محمدا لظلاله ... وأظله في الشام ثم غمائم

عرف البحيرا أن أتاهم عاقب ... وله الشهادة عنده وعلائم

صلوا على خير الورى متعاقبا ... صلوا كما صلى الإله الدائم

(*) المحاضر السابق في بمبي / الهند.

د. سلمان العودة*

عسكرة الحياة

وجدت كثيرًا من المخلصين يدور في رؤوسهم وأحاديثهم، أن مفتاح النهضة والرقي يتلخص في كلمة واحدة هي "القوة"، وأن القوة تتلخص في كلمة واحدة هي "السلاح المادي"، فهو كلمة السر التي بها هزمنا وعلى وقع تحصيلها ننتصر.

وتغلّب عدونا علينا هو بهذا النمط الخاص من القوة، وأمجادنا التاريخية هي من هذا الباب، ومستقبلنا مرهون بامتلاكها.

وامتد هذا إلى لغتنا المجازية فصارت كلمة "جيش" و"سلاح" و"قتال" تتردد على ألسنتنا، فأمضى "سلاح" هو الكلمة، ونحن "جيش" من المنهزمين، وقد أصبحت "أقاتل" من أجل هذا الموضوع.

ونسينا أن "القوة الناعمة" أخطر وأبعد أثرًا، وأنها تنخر في عظام الأجيال وتتخلل عقولهم وأخلاقهم وسلوكهم ببطء، وتأثيرها أكيد وبدون مقاومة.

ونسينا "قوة المعرفة" التي أصبحت هي ميزان الثقل اليوم، فأثمن سلعة وأعظم ثروة هي "سلعة المعرفة" التي يرجع إليها نحو ٥٠٪ من ثروات الدول المتقدمة.

إن قوة الإعلام تُحدث تأثيرًا تراكميًّا في العقل والوجدان، يتحول إلى سلوك عن قناعة وحب، وهو أخطر من الدبابة والصاروخ والقنبلة حتى لو كانت القنبلة النووية.

قد تنهزم عسكريًّا وتنتصر بقيمك وأخلاقك وإصرارك على مبدئك، وقد تنتصر عسكريًّا ولكنك لا تحسن توظيف هذا الانتصار.

وجدت في القرآن الكريم الامتنان على الناس بتحصينهم من آثار السلاح المدمر الذي هو "بأس" الإنسان ضد أخيه: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾(الأنبياء:٨٠)، فهذا نبي الله داود عليه السلام يعلمه ربه صنعة الدروع السابغات والخوذات وغيرها، مما يتحصن به الإنسان ضد السلاح الفتاك: ﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾(سبأ:١١)، وفي موضع آخر: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ﴾(النحل:٨١)،



وحين يذكر الله الحديد يقول: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾(الحديد:٢٥) وليس في ذلك مدح، لأنه يوظف غالبًا في البغي والظلم والاعتداء.

بينما عقب بقوله: ﴿وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾(الحديد:٢٥)، فكأن ما قبله ليس فيه منافع للناس، كما في الآية الأخرى: ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾(النحل:٦٧)، فالسياق يشي بأن السكر ليس من الرزق الحسن.

حتى سيرة سيدنا محمد ﷺ اختصرناها في المغازي، وبعضنا سمّاها "المغازي" وكأنها كانت قتالاً فحسب. أو ليس النبي ﷺ مكث في مكة ثلاث عشرة سنة محظورًا عليه وعلى أتباعه المؤمنين حتى الدفاع عن النفس، ليتجردوا من حظ النفس والانتصار لها نفسيًّا، وليتمكنوا من تحصيل الشروط الموضوعية والذاتية، وليستنفدوا الوسائل السلمية الممكنة، ثم كانت حياة المدينة مليئة بالمناشط الحيوية في البناء والتجارة والمؤاخاة والتعليم والدعوة والمصالحات الواسعة والعلاقات الإنسانية مع المجاورين حتى اضمحلت الوثنية دون قتال ومات النفاق؟!

حتى أول مواجهة مع الشرك لم يكن المسلمون يحبونها ولا يتطلعون إليها، ولكنها كانت قدرًا مقدورًا: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾(الأنفال:٧).

فيا سبحان الله! هذا الانحياز لعسكرة الحياة، أصبح أسلوبًا في التفاعل مع أولادنا وأزواجنا في الأوامر و"الفرمانات" التي لا تقبل المراجعة، وفي مدارسنا التي غلب عليها طابع التشديد والتهديد، وتلاشت عنها علاقة الحميمية والعلاقة الودية بين الطالب والمبنى الذي يشهد عدوانًا مستديمًا، والمعلم الذي قد يجد نفسه منساقًا بحكم تأثير البيئة التعليمية للغة الأمر الصارم والرقابة ويفقده بعض صوابه، والمدير الذي تعيّن عليه في نهاية المطاف أن يكون قائد ثكنة..

والأسرة التي لا تلتقي إلا لمامًا، وحتى اللقاء نتيجة أوامر صريحة وصراخ مستمر من الأبوين للتخلي مؤقتًا عن اللابتوب أو الشاشة وقتًا وجيزًا ليرى بعضنا بعضًا..

والسياسة التي ظللتنا بالروح الأبوية المهيمنة وكأن الإنسان غير قادر على معرفة مصالحه إلا بواسطة من يفكر عنه ويكون وصيًّا عليه، وهو يدري من أبعاد الأمور وخفاياها ما لا يدري سواه... وأصبح المرء لا يتنفس إلا وفق أطر محددة، لقد صارت الحرية "هامشًا" وصار الاستحواذ هو "المتن"، بينما المنطق أن يكون المتن هو الحرية، ويكون الهامش هو الضابط والشرط الذي لابد منه لتصبح الحرية قيمة اجتماعية وشرعية صحيحة.

حين نفكر في إصلاح أحوال الأمة عبر التاريخ، يتبادر إلى ذهننا القواد العسكريون، والانتصارات العسكرية وكأنها هي التي صنعت الأمة. أما القواد العلميون والتربويون والإصلاحيون فكأنه لا وجود لهم في عقولنا ولا تاريخنا حين نفكر بمعالجة الإخفاقات... ولذا فكل فتى منا مهموم بآلام الأمة يفكر أن يكون "صلاح الدين"، ولا يفكر أن يكون هو الشافعي أو مالك أو أحمد أو ابن تيمية أو ابن حجر أو النووي أو ابن النفيس أو ابن الهيثم أو المبدع أو العالم المتخصص... ألسنا نفكر بطريقة انتقائية ونتعامل مع الحياة على أنها معركة عسكرية الذي يفوز فيها يحصل على كل ما يريد؟

حين نتحدث عن التأثيرات الأجنبية، نشير إلى قادة الحروب والمعارك ضدنا أو الحروب والمعارك العالمية، وننسى صانعي السيارة وتأثيرهم الهائل في الحياة الفردية والمدنية والعمارة والعلاقات والعبادات، وننسى صانعي الهاتف وتأثيرهم الضخم في حياة الإنسانية، وننسى صانعي المطبعة أو التلفاز... وهلمّ جرًّا.

هذا جعل الكثير منا يتخلون عن أدوارهم الإصلاحية بانتظار مفاجأة عسكرية، وتُسبِّب في انخراط الدول الإسلامية والعربية في حقبة مضت في انقلابات عسكرية زادتها تخلفًا وثبورًا. وربما العقلاء الذين لا يؤمنون بجدوى المغامرات المرتجلة، قاموا إلى العزلة والانكفاء، وتمنوا في داخلهم "ظهور العادل المتغلب".

أما ذلك المجهود السهل المنسجم مع فطرتي وقدرتي والذي لا ألمس أثره المباشر الآن، ولكن يقال لي: إنه مجهود مؤثر، وإن السيل من نقطة، ومعظم النار من مستصغر الشرر، فالكثيرون يشككون في مصداقيته ويحاولون إقناعي بأنه يذهب أدراج الرياح.

وهكذا أصبحنا أغلبيةً ساكتة ساكنة غير فاعلة ولا مؤثرة بملء إرادتنا وقناعتنا، فهل إلى رجوع من سبيل!؟ ■

(*) عالم ومفكر وداعية / المملكة العربية السعودية.

قضايا فكرية

د. محمد إقبال عروي*

نحو تأصيل الفقه الهاروني في قضية الوحدة

غلب على خطاب المفسرين والعلماء -قديمًا وحديثًا- اعتبار القصص القرآني واردًا من أجل العظة والاعتبار، وكادوا يحصرونه في هذه الغايات التربوية، بينما يهدي التأمل في طبيعة القصص القرآني، وعلاقتها بسياقاتها القريبة والبعيدة داخل السورة وداخل المنظومة الفكرية والحضارية للقرآن الكريم، إلى أن القصص لا يقتصر في الورود القرآني على غايات العظة والاعتبار، وإنما يرد للتشريع، وتقديم أحكام تفيد في صياغة كليات القوانين والتشريعات التي تهدي حياة الناس والمجتمعات في علاقاتها الفردية والجماعية.

ولقد ساق هذا المنهج في التعامل مع القصص القرآني إلى ضمور العديد من المبادئ التشريعية. والواقع أن حل هذا الإشكال الخطير في علاقة المسلمين بالقصص القرآني، يحتاج من الوجهة المنهجية إلى إعادة النظر في مفاهيم؛ مثل استنباط الأحكام، وآيات الأحكام، وأساليب التشريع في القرآن الكريم.

فقد توهم كثيرون بأن التشريع يستمد من آيات الأحكام، وأن الأحكام التشريعية لابد أن ترد في صيغ الأمر المعهودة وأساليب التوجيه المعروفة مما أثر على حركة التدوين التشريعي، فجاء عطاء العلماء مهتمًا بآيات الأحكام مركزًا على تفاصيل الأوامر والنواهي، ولم يتجاوز ذلك إلى استنباط كثير من الأحكام الكلية المرتبطة بأمهات القضايا السياسية والدولية من القصص القرآني. ولو فعلوا ذلك لأبانت لهم وقفاتهم مع القصص القرآني عن مصادر خصبة في فلسفة



التشـريع. يقول الشـيخ محمد الغزالي: "ولـو أننـا تأملنا فـي القصـص القرآني واسـتفدنا منـه أحكامًـا كمـا نسـتمد الأحـكام مـن آيـة الوضـوء أو الغسـل -واسـتفادة الأحكام من الواقع العملي فـي تاريخ البشـرية أهم وأجـدر، لأنها عامـة ولأنهـا تتصل بسـنن حضارية لا تختلف- كانت الأمة الإسلامية لا تقبل دنية أبدًا".[1]

وإذا كانـت الأمثلـة كثيـرة، فيمكن الاقتصـار هنا، على نموذج يمثل أهمية التعامل مع القصـص القرآني باعتبارها واردة للتشـريع، مثلهـا فـي ذلـك مثـل آيات الأحكام سواء بسواء.

الفقـه الهـاروني، هو الـذي يعطي للأمـة مفهومًـا آخـر غـير مفهوم التكتل أو التجمهـر الظاهر حول أوهـام وطنيـة أو دينيـة أو قومية، بمعنـى أن قيمـة التكتـل الجمعـي تكمـن في التنـادي مـن أجل دعم مبـادئ الوحـدة المتجـاوزة لكل نـزوع سلبـي، وأن أي ميـل نحو التنـازع والتدابـر والتناحـر، إنما هـو ضـرب في قيمة ذلـك التكتل وإضعاف لمكانته.

معاناة موسى وهارون

تشع من خلال سرد قصة موسى عليه السلام مع قومه، معاني الصبر على الأذى وتحمل تبعات الدعوة إلى الله والصمود في وجه الافتـراءات، وكلها معان تدخل في مسـمى الاعتبار. لكن لم يتم الالتفات إلى مسألة في غاية الأهمية، وهي أن تلك القصة تقـدم مبادئ في التشـريع العام للأمة، يتمثـل ذلك في اعتبار التوحيد والوحدة معادلة يتعين رعايتهما وصيانتهما، ومن ثم، فـإن أمـر رعاية الوحدة لا يقل وجوبًـا وأهمية عن مبدأ رعاية التوحيد الذي قامت عليه السموات والأرض.

يقول القرآن الكريم في هذا السـياق: ﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِـفًا قَـالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَـنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُـمْ مَوْعِـدِي ۞ قَالُـوا مَا أَخْلَفْنَـا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَـا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَـا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّـامِرِيُّ ۞ فَأَخْـرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَـدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَـذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَـى فَنَسِـيَ ۞ أَفَلاَ يَـرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَـوْلاً وَلاَ يَمْلِكُ لَهُـمْ ضَـرًّا وَلاَ نَفْعًـا ۞ وَلَقَدْ قَـالَ لَهُمْ هَارُونُ مِـنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَـا فُتِنْتُمْ بِـهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِـي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ۞ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَـى ۞ قَالَ يَا هَـارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ۞ أَلاَّ تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ۞ قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لاَ تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلاَ بِرَأْسِـي إِنِّي خَشِـيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾(طه:٨٦-٩٤).

لقـد حـرص موسـى عليه السلام علـى أن يبقـى التوحيـد خالصًـا في نفـوس بني إسـرائيل، وجعله مناط الـولاء والبراء، ومـن ثـم كان تنبيهه لهـارون عليه السلام على أن الواجـب، وفـق هـذا الاعتبـار، كان يقتضـي منـه أن يتـرك السـواد الذيـن انخدعوا بعجل السـامري، وأن يفارقهم هـو ومـن بقـي فيهـم مـن الموحديـن ويلحقوا بموسى عليه السلام.

بينمـا اتجه تقدير هارون عليه السلام وجهة مغايـرة، فهو يؤمن بـأن الوحدة -وحدة بنـي إسـرائيل- لا تقل خطـورة وأهمية عـن التوحيـد، إذ كلاهما معتبر وواجـب، ومن ثم فقد ترجح لديه أن الوضع الذي هو فيه يقتضي إيلاء اعتبار للوحدة، مع إنكار ظواهر الشرك ونقدها، ومن ثم فلم يغادر موقفه، وبقي صابرًا صامدًا هو وجماعة الموحدين إلى أن عاد موسى عليه السلام من ميقات ربه عز وجل.

ومـن المؤكد أن هارون عليه السلام عانـى كثيرًا وهو يتعامل مع هـذه المعادلـة الصعبة أثناء غياب موسـى عليه السلام، طرفها الأول الحـرص علـى التوحيد، وطرفها الثانـي الحرص على وحدة بني إسـرائيل، ومن ثم فقد كان جوابه لأخيه موسـى يستبطن كل معانـي الحـرص واليقظة والحكمـة: ﴿إِنِّـي خَشِـيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْـرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾(طه:٩٤)، فعلة صبـر هـارون وعدم تحريضـه للموحدين على مفارقة سـواد بني إسـرائيل الواقعين في شـرك عبادة العجل، راجع إلى أنه حريص على بقاء وحدة الأمة.

قد يبـدو هذا التحليل مُوقعًا في العديد من الإشـكالات، لعـل أولها عـدم جواز القفز علـى المقـررات العقائدية لدى الأمـة مـن وجـوب الحفاظ علـى التوحيد، ورفـض مختلف أشـكال الشـرك، صغيرهـا وكبيرها، ظاهرهـا وباطنها، بل قد يبدو "بدعيًا" في معالجته، لأنه منشـيء لسـياق ثقافي ونفسي قد يوقع في التسـاهل مع أمر الشـرك وانتشاره، وقد يهون من أمر التحذيرات القرآنية والنبوية تجاه الشرك والمشركين.

والحقيقـة أن القضيـة أكبر من ذلـك، إذ لا تعلق لها بقول

جديـد مقابل أقـوال قديمة، أو وضع مصلحـة التوحيد مقابل مصلحـة الوحـدة، وإنمـا يتعلق الأمـر بالدعوة إلـى تدبر هذا الموقف الهاروني، واسـتخلاص المبادئ المسعفة في تعامل العرب والمسلمين اليوم مع حلم الوحدة -إن بقي هناك حلم أصـلًا- وكيفية التعامـل مع واقع الفرقـة والمذهبية والطائفية والحزبية والجماعية.

يقـول الإمـام أبو الحسـن علـم الدين السـخاوي: "وكان موسـى قـد أوصى هـارون فقـال: إن رأيت من بني إسـرائيل مـا لا يسـوغ، فبالغ في اللطـف ليرجعوا عما هـم عليه، وإلا فالحق بي، فأقبل موسى على السامري فقال: ﴿فَمَا خَطْبُكَ يَا سَـامِرِيُّ﴾(طه:٩٥)، يعني: قد اسـتقر عذر أخي ونطق بما يبرئه، فمـا خطبك أنت يا سـامري؟".[٢] ومؤدى كلام السـخاوي أن موسى عليه السلام استوعب موقف هارون وتعليله، ورضي به عذرًا لا يلزمه تبعات السكوت عن مواجهة الشرك المتفشي.

إن الموقف الهاروني يرسي مبادئ قوية، أساسها أن دعوة الرسـل هـي دعوة وحـدة بالدرجة الأولى، وبمـا أنها كذلك، فيمكـن الصبـر على مظاهر الشـرك هنا وهناك، والسـعي إلى اسـتئصالها تدريجيًّا، إذ الزمان كفيل بذلك، خاصة مع التنشئة والتوجيـه والتربية والإصلاح وذلـك كله رعاية لوحدة الأمة. والمقصـود بالصبر هنـا، المصابرة والمعالجـة الحكيمة، مثل معالجـة الطبيـب لمرضـاه، وليـس المقصـود به التجـاوز أو التغاضي أو التساهل.

التوحيد والوحدة

أمـا إذا انحـل عقد الوحدة، وصار آحاد الأمة أحزابًا وشـيعًا، وأضحـى منـاط الولاء والبراء زيـدًا أو عَمْرًا، بكـرًا أو تميمًا، فإن مصير الأمة مهدد في استقرارها وأمنها ومعاشها وعلاقتها بغيرها.

وواقـع الحـال شـاهد علـى هـذا الـذي تشـير إليـه الآية الكريمـة من ملامح "الفقه الهاروني"، فمع أن التوحيد سـائد فـي مجتماعتنـا العربية والإسـلامية، على الأقـل في صفوف المسلمين الموحدين من أهل سنة محمد صلى الله عليه وعلى آلـه وسـلم وهديه وملته، فـإن الوحدة مغيبـة، وثقافة الوحدة مهـددة، وسـلوك الوحـدة ضامـر، ومناهـج تحقيـق الوحـدة مفتقدة، وإنسان الوحدة معتقل، وخلق الوحدة مصادر.

إن الواقـع المعاصر للمسـلمين يؤكد أن السـياق الحالي، من المفترض أن يكون سياق تركيز ثقافي وتربوي واجتماعي وسياسـي وفني على قيمة الوحدة وأهميتها وضرورتها. ومن أجـل تحقيـق ذلـك، لابد مـن الصبر -قليـلًا أو كثيـرًا- على كوارث الشـرك والانحرافات العقديـة، التي لا يقلل أحد من خطورتها وفسادها ومقت تعاليم القرآن والسنة النبوية لها.

وممـا يعطـي للفقـه الهارونـي في مسـألة الوحـدة بُعدها الإسـتراتيجي، أن حركـة الأمـة فـي خـط تناقضي مـع حركة تاريخ الأمم، فنحن نشهد يوميًّا، انتشارًا لثقافة الوحدة وقيمها ومصالحها بالدول الغربية، مما أوصلهم إلى تكتلات سياسية واقتصادية وحضارية قوية، بينما تزداد الأمة العربية الإسلامية تمزقًا وفرقة وخلافًا ينذر بتفريخ دويلات هنا وهناك.

ثقافة الوحدة

بـل إن المتأمـل فـي الأحـوال الداخلية لـكل دولـة عربية أو إسـلامية، يلاحـظ أن ثقافة الوحدة تتراجع بشـكل رهيب في صفوف من يحملون مشـاريع النهضة الإسـلامية، ومن يضع عليهـم متنوّرو بلدانهـم آمالاً كبيـرة في الخـروج بأمتهم من مهاوي التخلف والاسـتبداد والجهل. فالخطاب السـائد -إلا مـا نـدر- هو خطـاب الفرقـة والخـلاف وتبـادل الاتهامات، وتهميـش أصوات الوحدة والتآلف والتقارب، وقلما نجد من يرفع شعار ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾(طه:٩٤).

إن الفقـه الهاروني في مسـألة الوحدة يهـدي إلى المبادئ الآتية:

١- الوحـدة واجبـة ومرعيـة، بـل إنهـا تدخـل ضمـن الكليـات الأساسـية فـي القـرآن الكريم وشـريعته السـمحة، وذلـك أن اسـتقراء المفـردات القرآنية الدالة علـى "الوحدة" مـن مثل "اعتصم" و"حبل الله"، ومـا يناقضها من مثل "تفرق" و"اختلـف" و"تنازع"، يدعم وجوب الوحـدة وتكليف الناس بهـا وحملهـم علـى تحقيقها والسـعي إليها عبـر تقوية فرص الوحـدة وإضعاف فـرص الفرقـة ونوازعهـا ومذاهبها. يقول الحـق جل جلاله: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًـا وَلاَ تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَـةَ اللهِ عَلَيْكُـمْ إِذْ كُنْتُـمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْـنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِـهِ إِخْوَانًا﴾(آل عمران:١٠٣)، ويقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِـيَعًا لَسْـتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾(الأنعام:١٥٩)، ويقول سـبحانه: ﴿وَلاَ تَكُونُـوا كَالَّذِيـنَ تَفَرَّقُـوا وَاخْتَلَفُوا مِـنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُـمُ الْبَيِّنَـاتُ﴾(آل عمران:١٠٥)، ويقـول: ﴿فَتَقَطَّعُـوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُـمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾(المؤمنون:٥٣)، ويحذر

القرآن من مآلات المشركين: ﴿وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۞ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا﴾(الروم:٣٢).

ويصف المنافقين بأنهم يتقصدون إحداث الفرقة بين المسلمين، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾(التوبة:١٠٧).

٢- قد يتحمل من الشرك أو غيره، حالاً، ما يحفظ وحدة الأمة حالاً واستقبالاً. ولعل في موقف الرسول ﷺ وصحابته الأوائل من الأصنام المنتشرة بمكة في بداية الدعوة الإسلامية، ما يمنح مجالاً خصبًا للقياس والمقارنة والاعتبار في هذا السياق، فمن أجل مقصدية الحفاظ على أرواح القلة من المسلمين، أرجأ الرسول ﷺ تحطيم الأصنام بمكة. وقياسًا على ذلك يجوز القول هنا، بإمكانية الصبر على بعض مظاهر الشرك لفترة، من أجل رعاية مقصد الوحدة، والله أعلم.

٣- الخشية من ضياع الوحدة لا تقل أهمية عن الخشية من ضياع التوحيد، باعتبار أن الأمة مأمورة بهما معًا: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا﴾(آل عمران:١٠٣)، ﴿وَاعْبُدُوا اللهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾(النساء:٣٦).

٤- الوحدة تدخل ضمن واجبات القيادة العليا، فهي مما استحفظت عليه من قبل رعيتها، ولأنها كذلك، فالواجب أن تبث هذه القيمة في إستراتيجيتها الداخلية والخارجية، وفي برامجها التعليمية، وفي أنشطتها الفنية والاجتماعية.

٥- من الخير لعلماء الأمة ومفكريها ودعاتها أن يكونوا عونًا على نشر قيم الوحدة الواجبة بمقتضى الفقه الهاروني، وأن يدعموا خطواتها ويباركوا مسيرتها، وأن لا يجعلوا انتفاء الانحرافات العقدية أو السلوكية شرطًا في انخراطهم في الدعوة إلى الوحدة وتحقيقها، فقد يكون اشتراطهم ذلك مانعًا من موانع تحقيق الوحدة أصلاً، وقد يفوت مصالح كثيرة، وإذا كانت الخلافات المذهبية والقبلية والحزبية سبيلاً إلى إراقة الدماء، في بعض الأحيان. فإن درء هذه المفاسد والكوارث لا يتم إلا بنشر ثقافة الوحدة، ومعلوم أن درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة، مما يعني أن درء مفسدة إراقة الدماء مقدم على جلب مصلحة التوحيد، وخاصة داخل الأمة الواحدة التي ترفع شعار الإسلام. وليس في هذا تعطيل لواجب الأمر المعروف والنهي عن المنكر الذي يمثل "هوية" الأمة المسلمة بنص القرآن الكريم، ذلك الأمر والنهي الذي يتخذ أشكالاً متعددة ومستويات متضامنة يبدأ بإنكار القلب واللسان، وينتهي بإنكار اليد والجهاد وفق قواعده وضوابطه وفقهه.

الوحدة واجبة ومرعية، بل إنها تدخل ضمن الكليات الأساسية في القرآن الكريم وشريعته السمحة، وذلك أن استقراء المفردات القرآنية الدالة على "الوحدة" وما يناقضها، يدعم وجوب الوحدة وتكليف الناس بها وحملهم على تحقيقها والسعي إليها عبر تقوية فرص الوحدة وإضعاف فرص الفرقة ونوازعها ومذاهبها.

إن هذا الفقه الهاروني، هو الذي يعطي للأمة مفهومًا آخر غير مفهوم التكتل أو التجمهر الظاهر حول أوهام وطنية أو دينية أو قومية، بمعنى أن قيمة التكتل الجمعي تكمن في التنادي من أجل دعم مبادئ الوحدة المتجاوزة لكل نزوع سلبي، وأن أي ميل نحو التنازع والتدابر والتناحر، إنما هو ضرب في قيمة ذلك التكتل وإضعاف لمكانته. يقول الأستاذ فتح الله كولن: "لذا لا يمكن القول إن كل تجمهر هو جماعة، بل إن بعض الكتل التي تسري العداوة بينها ليست بعيدة فقط عن ماهية الجماعة، وإن زيادة الأفراد فيها تؤدي إلى زيادة الضعف... فأصحاب الأنبياء الذين تميزوا بروح الجماعة، شكلوا جماعات قوية مع قلة أعدادهم، وأدوا المطلوب منهم (توحيدًا ووحدة)... والحقيقة أن كل فئة قليلة من هذا الصنف ومن هذا المستوى، عدت في التاريخ أقوى من العديد من الكتل الجماعية المتنافرة وأكثر بركة".[٣]

٦- من بركات الوحدة أن يتحقق التواصل بين مكونات الأمة وينتشر الحوار، وهذا يفضي إلى التناصح والتعاون على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفي هذا مجال خصب لبيان أخطاء الانحرافات العقدية والسلوكية وأخطارها بالحكمة والمنهج السليم. وقد تقرر في ميزان العقل، أنه يستحيل على المرء أن يبقى متمسكًا بأخطائه وانحرافاته وهو يرى الحق أبلج، إلا إذا كان صاحب هوى متبع أو شخصًا مأجورًا لنشر الشرك. أما في ظل الفرقة والتمزق وتغذية ثقافة الكراهية والانقسام، فإن العقل يتراجع عن حكمته، ويسود

التعصب الذي يتلبس لبوس الدين والهوية والتاريخ، وتطغى الأحكام التي تدعي استنادها إلى نصوص الوحي والحديث الشريف، بل قد تجد الاغتيالات والتصفيات مسوغها الفقهي. ولا مخرج ولا منجى من هذا الوضع إلا باعتماد أبجديات الفقه الهاروني التي تجعل الوحدة مطلبًا شرعيًّا وضرورة حضارية، والتي تبرز كيف أن ثقافة الإسلام هي ثقافة توحيد ووحدة سواء بسواء.

وإذا اتضح هذا، فإن الكاتب يدعو إلى تأصيل هذا الفقه الهاروني من خلال الخطوات الآتية:

- تتبع أقوال المفسرين في تناولهم للآيات المذكورة من سورة "طه".
- قراءة تلك الآيات في ضوء مقاصد القرآن في العمران الإنساني.
- جمع الأحاديث الواردة في النهي عن الشرك، وقراءتها على ضوء تلك الآيات القرآنية.
- استحضار القواعد الأصولية في الفهم والترجيح، من مثل: "درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة" وغيرها كثير.
- قراءة تاريخ الأمة في ضوء ملامح الفقه الهاروني للوقوف على حجم الكوارث الناتجة عن تغييب "واجبية" الوحدة وأهميتها في صلاح معاش الأمة ومعادها.
- قراءة الواقع المعاصر لمشاريع الصحوة الإسلامية واتجاهاتها ومدارسها (أدبياتها، قوانينها الداخلية، برامجها ومشاريعها، إنجازاتها...) للوقوف على حدود حضور ثقافة الوحدة وثقافة الفرقة، ومدى وعي تلك المشاريع بوجوب الوحدة وجوبَ التوحيد. ■

(*) أستاذ التعليم العالي / المغرب.

الهوامش

(1) الشيخ محمد الغزالي: "كيف نتعامل مع القرآن"، في مدارسة أنجزها الأستاذ عمر عبيد حسنة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط:1، 1991م، ص:230.

(2) تفسير القرآن العظيم، للإمام أبو الحسن علم الدين السخاوي، تحقيق: الدكتور موسى علي موسى مسعود، والدكتور أشرف محمد عبد الله القصاص، ط:1، 2009م، ج:1، ص:408، دار النشر للجامعات، القاهرة.

(3) فتح الله كولن.. جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، لمحمد أنس أركنة، ط:1، 2010م، ص:317، دا رالنيل، مصر.



براعم البراءة

يا مسكوب اللطف،
يا رحيق الرحمة،
يا بريئًا بين مذنبين...
أنت إلى الله قريب؛
فإذا شَمَمْناك، فعبيرَ الماوراء نَشُمّ،
وإذا ضممناك، فطُهرَ الوجود نضمّ،
فنحن سجناء أوزارنا، ومكبَّلو أوهامنا...
وأنتَ بالحرّية تنعم،
لا قيد يقيدك، ولا وِزْر يثقلك...

* * *

نور الدين صواش*

الجندي الباسل

الملازم الأول "كيسي" (Casey) -الذي أصبح فيما بعدُ واليًا عامًّا على أستراليا- ينقل لنا هذه الحادثة التي عاشها في معركة "جَنَقْ قلعة" (Çanakkale) التي وقعت في مارس/آذار ١٩١٥ أثناء الحرب العالمية الأولى، إذ يقول:

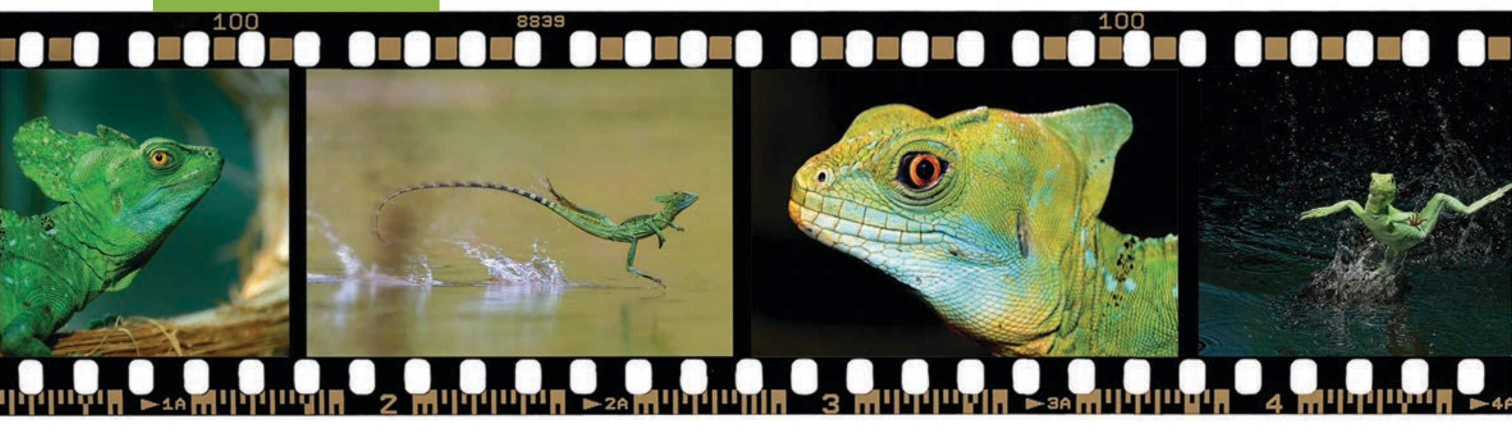
في يوم ٢٥ من شهر أبريل/نيسان، دار قتال رهيب بين القوات العثمانية وقوات التحالف في موقع "جُونْكْ بايِري" (Conkbayırı). كانت المسافة بين خنادق القتال حوالي ٨-١٠ أمتار. وبعد الهجوم بالحِراب وقف القتال لفترة من الزمن.. انسحب الجنود إلى خنادقهم.. وإذا بصيحات استرحام تشق عنان السماء وسط خنادق الطرفين، يطلقها نقيب إنكليزي بُترتْ ساقه أثناء المعركة.. ولكن لا أحد يجرؤ على الخروج لمساعدته، إذ مع أدنى حركة ينطلق مطر من الرصاص يدوّي فوق الرؤوس..

في تلك الأثناء حدَث شيء مذهل؛ إذ بدتْ يدٌ من بين الخنادق العثمانية تلوّح بملابسَ داخلية بيضاء.. ثم خرج جندي عثماني شجاع من خندقه خروج الأسد دون سلاح.. وجّهنا أسلحتنا صوبه نراقبه بحذر.. لم نعد نسمع إلا أنفاسنا، ولم نشعر إلا بصدورنا تعلو وتهبط.. بدأ الجندي يمشي ببطء نحو خنادقنا.. وعندما وصل إلى النقيب الجريح، حدب عليه بهدوء ثم احتضنه برفق، ثم تأبطه وبدأ يمشي به نحونا.. وما إن وصل إلينا حتى وضعه على الأرض بلطف، ثم عاد من حيث أتى.. لم نجد فرصةً لشكر ذلك الجندي الباسل الذي واجه الموت من أجل مساعدة عدوه الذي يحاربه! وظل الجنود في ميادين القتال، يتحدثون أيامًا عن ذلك الجندي الشجاع الذي أبدى احترامًا من نوع آخر تجاه الإنسان وكرامته، وقدّم للإنسانية درسًا إنسانيًا عن الحب والرحمة من الإنسان لأخيه الإنسان حتى في ميادين القتال.

نقدّم تحياتنا وحبّنا واحترامنا إلى أولئك الجنود الذين أبدوا بسالةً تستحق الثناء والتقدير. ■

"الملازم الأول كيسي"





سحلية الماء.. خبيرة الجري على الماء

من المعروف لدى الجميع أن السحليات تمشي على اليابسة، ولكن مَن منا سمع بسحليات تجري على الماء!؟

قامت مجموعة من العلماء في جامعة هارفارد الأمريكية بتحليل حركة أقدام سحلية الماء أو باسيليسك (Basilisk)، لمعرفة السر في جريها فوق الماء، فاندهشوا عندما رأوا السرعة التي يسير بها هذا المخلوق.. فوجدوا أن هذه السحلية تقوم بضربِ رجليها الخلفيتين -اللتين تتمتعان بغشاء بين الأصابع- على سطح الماء بقوةٍ خارقة، لتُحدث فقاعات هوائية تحت رجليها، ثم تدوس على هذه الفقاعات بسرعة هائلة وبوتيرة ثابتة وتوازن عجيب، مستخدمة ذيلها كأداة مساعدٍ في هذا التوازن أثناء جريها دون السقوط على أحد جوانبها أو دون الغطّ في الماء.

تخطو هذه السحليات حوالي ٢٠ خطوة على الماء في الثانية الواحدة، أي تجري بسرعة ٤,٥م في الثانية الواحدة. وإذا أرادت هذه السحلية الطفو على أقدامها الأربع على الماء، تستخدم جيبها الهوائي الصغير الموضوع على بطنها من جهة الذقن في موازنة جسمها التوازن التام.

توجد هذه السحليات في الغابات الاستوائية في أمريكا الوسطى والجنوبية، لا سيما في كوستاريكا. تعيش حوالي ثماني سنوات، وتبيض الأنثى منها ٥-٨ مرات في السنة الواحدة، وقد تضع في كل مرة حوالي ١٨ بيضة. يبلغ طول الواحدة من هذه السحليات حوالي ٥٠ سم، وأما وزنها فيتراوح ما بين ٢٠٠ إلى٦٠٠غ. وعليه فإن هذه المخلوقات تتغذى بالحشرات الصغيرة والنباتات.

ولا شك أن هذه الحيوانات كانت مصدر إلهام للعلماء في اختراعهم "الحوامة" التي تطفو في الهواء على وسادة هوائية أسفل جسمها، وتسير بسرعة فائقة ووتيرة ثابتة وتوازن تام. ■

(*) كاتب وباحث تركي.



مجلة علمية فكرية ثقافية تصدر كل شهرين عن:
Işık Yayıncılık Ticaret A.Ş
İstanbul / Türkiye

صاحب الامتياز
مصطفى طلعت قاطيرجي أوغلو

المشرف العام
نوزاد صواش
nsavas@hiramagazine.com

رئيس التحرير
هانئ رسلان

مدير التحرير
أجير إشيوك

المخرج الفني
مراد عرباجي

المركز الرئيس
HIRA MAGAZINE
Kısıklı Mah. Meltem Sok.
No:5 34676 Üsküdar
İstanbul / Turkey
Phone: +902163186011
Fax: +902164224140
hira@hiramagazine.com

مركز التوزيع
٧ ش البرامكة – الحي السابع – م.نصر/القاهرة
تليفون وفاكس: 5-20226134402+
الهاتف الجوال : 201004871038+
جمهورية مصر العربية

نوع النشر
مجلة دورية دولية

Yayın Türü
Yaygın Süreli

الطباعة
Çağlayan Matbaası
İzmir - Turkiye
Tel:+90 (232) 252 20 96

رقم الإيداع
١٨٧٩-١٣٠٦

للاشتراك من كل أنحاء العالم
pr@hiramagazine.com



التصور العام

- حراء مجلة علمية فكرية ثقافية تعنى بالعلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية وتحاور أسرار النفس البشرية وآفاق الكون الشاسعة بالمنظور القرآني الإيماني في تآلف وتناسب بين العلم والإيمان، والعقل والقلب، والفكر والواقع.
- تجمع بين الأصالة والمعاصرة وتعتمد الوسطية في فهم الإسلام وفهم الواقع، مع البعد عن الإفراط والتفريط.
- تؤمن بالانفتاح على الآخر، والحوار البناء والهادئ فيما يصب لصالح الإنسانية.
- تسعى إلى الموازنة بين العلمية في المضمون والجمالية في الشكل وأسلوب العرض، ومن ثم تدعو إلى معالجة المواد بمهنية عالية مع التبسيط ومراعاة الجوانب الأدبية والجمالية في الكتابة.

شروط النشر

- أن يكون النص المرسل جديدا لم يسبق نشره.
- ألا يزيد حجم النص على ٢٠٠٠ كلمة كحد أقصى، وللمجلة أن تلخص أو تختصر النصوص التي تتجاوز الحد المطلوب.
- يرجى من الكاتب الذي لم يسبق له النشر في المجلة إرسال نبذة مختصرة عن سيرته الذاتية.
- تخضع الأعمال المعروضة للنشر لموافقة هيئة التحرير، ولهيئة التحرير أن تطلب من الكاتب إجراء أي تعديل على المادة المقدمة قبل إجازتها للنشر.
- المجلة غير ملزمة بإعادة النصوص إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر، وتلتزم بإبلاغ أصحابها بقبول النشر، ولا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.
- تحتفظ المجلة بحقها في نشر النصوص وفق خطة التحرير وحسب التوقيت الذي تراه مناسبا.
- النصوص التي تنشر في المجلة تعبِّر عن آراء كُتَّابها، ولا تعبِّر بالضرورة عن رأي المجلة.
- للمجلة حق إعادة نشر النص منفصلًا أو ضمن مجموعة من البحوث، بلغته الأصلية أو مترجمًا إلى أي لغة أخرى، دون حاجة إلى استئذان صاحب النص.
- مجلة حراء لا تمانع في النقل أو الاقتباس عنها شريطة ذكر المصدر.

يرجى إرسال جميع المشاركات إلى هيئة تحرير المجلة على العنوان الآتي:

hira@hiramagazine.com

USA
Tughra Books
345 Clifton Ave., Clifton,
NJ, 07011, USA
Phone:+1 732 868 0210
Fax:+1 732 868 0211

SAUDI ARABIA
الوطنية للتوزيع
Phone: +966 1 4871414
المكتب الرئيسي: شارع التخصصي مع تقاطع شارع
الأمير سلطان بن عبد العزيز عمارة فيصل السيار
ص.ب: 68761 الرياض: 11537
الجوال: 00966504358213
saudia@hiramagazine.com
abdallahi7@hotmail.com
Phone-Fax: +966 1 2815226

MOROCCO
الدار البيضاء ٧٠ زنقة سجلماسة
Société Arabo-Africaine de Distribution,
d'Edition et de Presse (Sapress)
70, rue de Sijilmassa, 20300 Casablanca / Morocco
Phone: +212 22 24 92 00

SYRIA
GSM: +963 955 411 990

YEMEN
دار النشر للجامعات
الجمهورية اليمنية، صنعاء، الخط الدائري الغربي،
أمام الجامعة القديمة
Phone: +967 1 440144
GSM: +967 711518611

ALGERIA
Bois des Cars 1 Villa N°68 Dely Brahim
GSM: +213 770 26 00 27

SUDAN
مركز دار النيل، مكتب الخرطوم
أركويت مربع 48 منزل رقم 31 – الخرطوم – السودان
Phone: 0024 999 559 92 26 - 0024 915 522 24 69
hirasudan@hotmail.com

JORDAN
شركة زوزك/شميساني شارع عبد الحميد شرف، بناية رقم:61
عمان/الأردن.
Phone: +962 656 064 44
GSM: +962 775 935 756
hirajordan@hotmail.com

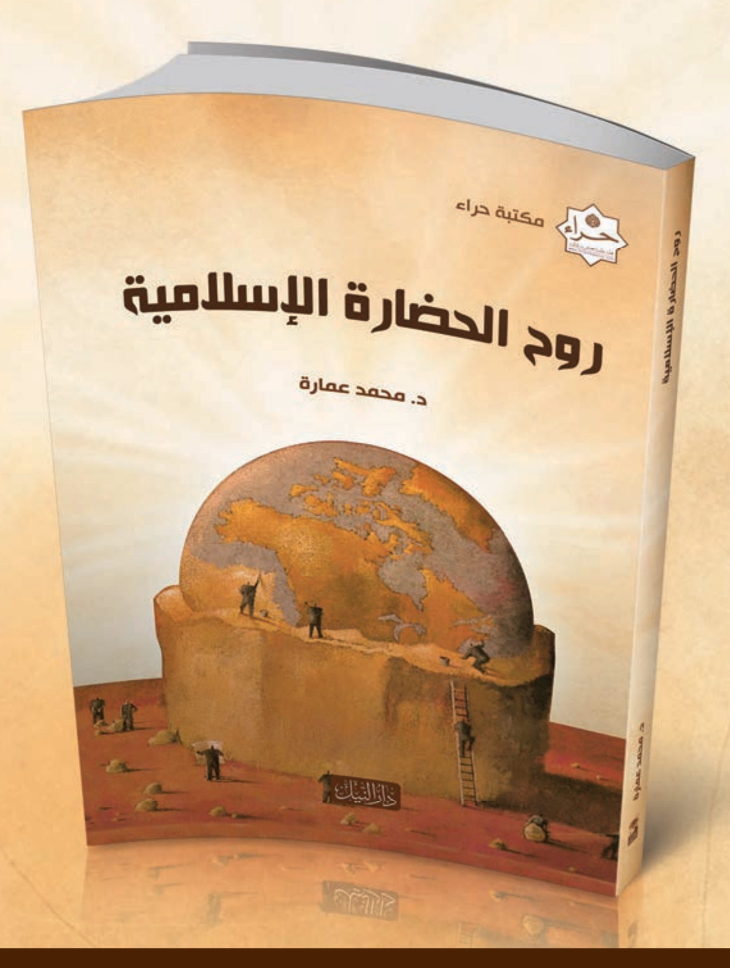
UNITED ARAB EMIRATES
دار الفقيه للنشر والتوزيع
ص.ب. 6677 أبو ظبي
Phone: +971 266 789920

MAURITANIA
Phone: +2223014264

روح الحضارة الإسلامية

د. محمد عمارة

- كتاب موسوعي الفكر...
- يُشهدك تجليات الحضارة الإسلامية في شؤون الفكر والحياة...
- يأخذك إلى ثناياها... ويوقفك على أسرارها...
- ويُبهرك بعظمتها... ويشغلك بجمالاتها...
- ويُغريك بمحبتها... ويمنحك امتدادًا في ذاتها...
- وتجوالاً في آفاقها... ورغبة بالعيش في ظلالها...





خارطة النور

من "الماوراء" أنوار تهلُّ،

ظمأَ الأرض تسقي، وعطشَ الدنيا تروي...

ومن وراء الأفق، ألف شمس وشمس،

بالنور خفَّاقة، وبالإشراق سطَّاعة...

وإلى كهوف الظلام مذعورةً تجري،

أرواح على الإلحاد تربَّتْ، يلاحقها النور،

وبخناقها يمسك، ولاتَ حين مناص...

* * *

تركيا: ٦ ليرات • أوروبا: ٣,٥ يورو • أمريكا: ٥ دولار • المملكة العربية السعودية: ١٢ ريال سعودي • اليمن: ٣٥٠ ريال يمني • المغرب: ٢٠ درهم • الجزائر: ٢٥٠ دينار



